أحوال الناس

وذكر الخاسرين والرابحين منهم

للإمام العلامة سلطان العلماء

العز بن عبد السلام

(٥٧٧-٦٦٠هـ)

مجدي فتحي السيد

دار الصحابة للتراث بطنطا

للنشر والتحقيق والتوزيع

ت. ٣٣١٥٨٧ - ص. ب: ٤٧٧

كتـاب قـد حـوى درراً بـعين الحسـن ملحوظـة

لهذا قلت تنبيهاً

لدار الصحابة للتراث بطنطا
للنشر والتحقيق والتوزيع
ت : ٣٣١٥٨٧ - ص.ب : ٤٧٧
شارع المديرية - أمام محطة بنزين التعاون

الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله .

﴿ يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1].

﴿ يَاأَيُّها النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً واتَّقُواْ الله الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ الله كان عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[2].

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُوا الله وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٢ .

(٢) سورة النساء : ١ .

(٣) سورة الأحزاب : ٧١ .

بين يدى الكتاب

أخى المسلم . . . أختى المسلمة . .

أعظم مافى هذه الحياة الدنيا هو شعور المرء برضا الله عنه ، والدخول فى طاعته ، والإحساس بقبول الله لعمل عبده .

ولكننا كثيراً مانسينا هذا الأمر الجليل ، بسبب كثرة الذنوب ، وتراكم العيوب ، واللهث وراء الشهوات الفانيات ، والزهد فى الباقيات الصالحات .

إننا فى حاجةٍ أن نقف مع أنفسنا ، ونعرف لماذا زهدنا في الآخرة ، ورغبنا فى الدنيا ؟ !

إننا فى حاجةٍ لكى نعرض أنفسنا على كتاب ربنا ، وسنة نبينا ﷺ ، لكى نعرف هل نحن من الرابحين ، أم من الخاسرين .

إننا فى حاجةٍ لكى نتعرف ماهى عيوبنا التى لدينا ، وكيف نستطيع أن نتخلص منها .

أخى المسلم . . .

إنك دائماً تتساءل أين عيوبى ؟ وماهى أخطائى ؟

فالعبد منا دائماً لا يرى فى نفسه إلا الخير ، بل ربما ذم غيره بما فيه ، وربما ذمه إنسان بما فيه من عيبٍ فيغضب لذلك ، مع أن العيب الذى ذُمّ من أجله فيه ، وبالعكس ربما مُدح بما ليس فيه فيفرح بذلك .

حقاً إنه خداع النفس ، ومكر الهوى ، وأمانى المغرور .

مقدمة :

إننا لكى نتعرف على عيوبنا،على كل واحدٍ منا أن يعرض نفسه على كتاب الله ، وينظر أين هو منه ! !

وفى هذا الكتاب يحدثنا سلطان العلماء عن الرابحين والخاسرين .

ويذكر لنا صفات المفلحين ، أصحاب دار السعادة ، وصفات الأشقياء ، أصحاب دار الشقاء .

فهذا الكتاب نصيحة نفيسة ، يقدمها إمامٌ جليلٌ لكل المسلمين ، تحذيراً لهم من الوقوع تحت غضب الرحمن وعقابه ، وتنبيهاً لهم على العمل بطاعة الله ورضاه .

ولقد قسم الإمام رسالته الغالية إلى عدة فصول ، تختلف فى حجمها حسب أهميتها ، وحسب المراد بها .

فهذا فصل فى بيان أحوال الناس من رابحين وخاسرين .

وهذا فصل فى معرفة تفضيل بعض الموجودات على البعض .

وذاك فصل فى صفة أحوال الناس فى البرزخ .

وهذا فصل فى صفة لذات الجنة وأفراحها ، وآخر فى صفة غموم النار وآلامها .

وتلك بعض الفوائد العزيزة النادرة .

وهكذا ينتهى الكتاب بين نصائح وفوائد للناس أجمعين ، فرحم الله عالمنا الجليل ، وأسكنه جنات النعيم ، إنه على مايشاء قدير ، وهو نعم المولى ، ونعم النصير .

ترجمة المصنف

(١) نسبه ونشأته :

هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم بن الحسن ، السلمى ، الدمشقى ، ثم المصرى الشافعى .

ولد فى دمشق ٥٧٧ هـ ، وبدأ حياته **فقيراً** جداً ، وتفقه على علماء عصره ، ومشايخ وقته .

ولقد كانت له همة عالية فى تتبع العلم وأسراره ، وذلك لمحاولته تعويض مافاته من عُمرٍ ، حيث بدأ متأخراً فى تلقى العلم .

يقول العز رحمه الله عن نفسه :

« مضيتها ثلاثين سنة لا أنام حتى **أمرر** أبواب الأحكام على خاطرى » حتى وصل حاله أن يقول له بعض شيوخه :

« قد استغنيت عنى فاشتغل مع نفسك » .

(٢) شيوخه الذين تلقى عنهم :

للعز – رحمه الله – شيوخ كثيرون ، فلقد قرأ الأصول والعربية ، وتفقه على الفخر بن عساكر ، وسمع من : العلامة على بن محمد ، المعروف بالآمدى . ومن حمزة بن الموازينى ، وعبد اللطيف بن أبى سعد ، والقاضى جمال الدين بن الحرستانى ، والعلامة أبى حفض المعروف بابن طبرزد ، والإمام بهاء الدين القاسم بن عساكر ، وغيرهم .

(٣) تلاميذه الذين تلقوا عنه :

جمع العز بن عبد السلام – رحمه الله – علوماً كثيرة ، وأفاد الطلبة ، ودرس بعدة مدارس بدمشق ، وولى خطابتها ، ثم سافر إلى مصر ، ودرس بها وخطب وحكم ، وانتهت إليه رئاسة الشافعية .

ومن تلاميذه : الحافظ شرف الدين **الدمياطى** ، وخرّج له أربعين حديثاً ، وابن دقيق العيد ، وهبة الله القفطى ، وجلال الدين الدشناوى ، وشهاب الدين أبو شامة ، وغيرهم كثير .

(٤) صفاته الخُلُقية :

[اشتهر – رحمه الله – بالزهد والورع ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والصلابة فى الدين ، واشتهر بترك التكلف .

وولى الخطابة بدمشق فأزال كثيراً من بدع الخطباء ، واجتنب الثناء على الملوك ، بل كان يدعو لهم .

(٥) محنة الشيخ رحمه الله :

لما سلّم الصالح إسماعيل قلعة الشقيف ، نال منه الشيخ على المنبر ، ولم يدع له ، فغضب الملك من ذلك ، وعزله ، وسجنه ، ثم أطلقه .

توجه الشيخ بعد ذلك إلى مصر فتلقاه صاحب مصر الصالح أيوب ، وأكرمه ، وفوض إليه قضاء مصر دون القاهرة والوجه القبلى ، فأقام بالمنصب أتم قيام ، وتمكن من الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ثم عزل نفسه من القضاء ، وعزله السلطان من الخطابة ، فلزم بيته ، وأخذ فى التفسير في دروسه .

ولما بلغ السلطان خبر موته قال :

« لم يستقر ملكي إلا الساعة ، لأنه لو أمر الناس في بما أراد لبادروا إلى امتثال أمره » .

(٦) ثناء العلماء عليه :

❋ قال ابن دقيق العيد رحمه الله :

« كان ابن عبد السلام أحد سلاطين العلماء » .

❋ وقال ابن كثير رحمه الله :

« انتهت إليه رئاسة الشافعية ، وقصد بالفتاوى من الآفاق » .

❋ وقال السبكي رحمه الله :

« شيخ الإسلام والمسلمين ، وأحد الأئمة الأعلام ، سلطان العلماء ، إمام عصره بلا مدافعة ، القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه ، المطلع على غوامض الشريعة وحقائقها ، لم ير مثل نفسه ، ولا رأى من رآه مثله ، علماً وورعاً ، وقياماً في الحق ، وشجاعة ، وقوة جنان ، وسلامة لسان » .

❋ وقال الحافظ المنذري – رحمه الله – بعد دخول الشيخ مصر :

« كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين ، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه » .

❋ وقال ابن العماد الحنبلي رحمه الله :

« عز الدين شيخ الإسلام ، وحيد عصره ، سلطان العلماء ، برع في الفقه والأصول ، والعربية وفاق الأقران ، والأضراب ، وجمع بين فنون العلم من التفسير والحديث ، والفقه واختلاف الناس ، وبلغ رتبة الاجتهاد » .

(٦) مصنفاته العلمية :

صنف الإمام التصانيف المفيدة ، وتنوعت المجالات التى صنف فيها ، ومن كتبه :

١ – قواعد الأحكام .
٢ – ملحة الاعتقاد . مخطوط يسَّر الله لنا تحقيقه .
٣ – مختصر صحيح مسلم .
٤ – بداية السول في تفضيل الرسول ﷺ .
٥ – البيان في بيان أدلة الأحكام .
٦ – فوائد مشكل القرآن .
٧ – اختصار تفسير الماوردى . مخطوط بدار الكتب المصرية .
٨ – تفسير القرآن العظيم .
٩ – الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز .
١٠ – كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار .
١١ – كتاب الصلاة .
١٢ – حل الرموز ومفاتيح الكنوز .
١٣ – مجلس في ذم الحشيشة .
١٤ – العماد في مواريث العباد .
١٥ – النخبة العربية في ألفاظ الأجرومية .
١٦ – شرح السول والأمل في علمى الأصول والجدل .
١٧ – الغاية في اختصار النهاية في فروع الفقه الشافعى .
١٨ – الفتاوى الموصلية . مطبوع .
١٩ – الفرق بين الإيمان والإسلام . مخطوط .
٢٠ – قواعد الأحكام في إصلاح الأنام . مطبوع .
٢١ – مقاصد الرعاية للمحاسبى . مخطوط .

٢٢ - ترغيب أهل الإسلام في سكن الشام .
٢٣ - الإلمام في أدلة الأحكام .

وغيرها مما لم نعثر على بعضه ، أو لازال مخطوطاً في المكتبات .

(٨) وفاته :

حضره الموت في عاشر جمادى الأولى ، من سنة ستين وستمائة ، ودفن من الغد بسفح المقطم ، حيث مقبرة القرافة ، وكان قد نيف على الثمانين ، وحضر جنازته الخاص ، والعام ، السلطان فمن دونه ، ولما بلغ السلطان خبر موته قال :

« لم يستقر ملكي إلا الساعة ، لأنه لو أمر الناس فيّ بما أراد لبادروا إلى امتثال أمره » . فرحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه كل خير عما قدم للإسلام والمسلمين .

(٩) ولمزيد من التعرف على المصنف ، انظر المراجع والمصادر التالية :

١ - البداية والنهاية (١٣/٢٣٥) .
٢ - تاريخ علماء بغداد (ص١٠٤) .
٣ - النجوم الزاهرة (٢٠٨/٧) .
٤ - مرآة الجنان (١٥٣/٤) .
٥ - شذرات الذهب (٣٠١/٥) .
٦ - المختصر في أخبار البشر (٢٤٤/٣) .
٧ - فوات الوفيات (٢٨٧/١) .
٨ - مفتاح السعادة (٢١٢/٢) .
٩ - كشف الظنون (٩٢ ، ١١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٦٠ ، ٣٩٩ ، ٤٣٨ ، ٤٥٣ ، ٨٨٣ ، ١٠٢٧) وغيرها .
١٠ - إيضاح المكنون (٨٤/١ ، ١٦٧ ، ٦٣١) .

١١ - هدية العارفين (١/٥٨٠) .
١٢ - الأعلام للزركلي (٤/٢١) .
١٣ - معجم المؤلفين لكحالة (٥/٢٤٩) .

* * *



وصف مخطوط الكتاب

عثرت بفضل الله تعالى على مخطوط لهذا الكتاب الطيب في دار الكتب المصرية ، العامرة بنفائس مخطوطات تراث سلفنا الصالح .

ويوجد مخطوط هذا الكتاب برقم (٣٥) تحت رمز (أخلاق تيمور) . وفي الدار نسخة منه على ميكروفيلم برقم (١١٣٦٦) .

عدد صفحات المخطوط (٣٢) صفحة ، أى (١٦) ورقة .

في كل صفحة في المتوسط (٢٠) سطرا* ، وفي السطر حوالى (١٠) كلمات وخط المخطوط جيد مقروء ، عنوانه (رسالة في بيان أحوال الناس ، وذكر الخاسرين والرابحين منهم) .

ولقد نسبه إلى المؤلف البغدادى في هدية العارفين (٥/٨٠) ..

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبه نستعين وما توفيقي
أخبرنا المشايخ الأئمة نور الدين أبو الحسن علي بن إسمعيل بن قريش المخزومي ومجد الدين
أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحيمي في آخرين إذنا قالوا أخبرنا الإمام العلامة شيخ الإسلام
أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام السلمي إنشاء في المؤلف إجازة قال **فصل**
في بيان أحوال الناس معظم الناس خاسرون وأقلهم رابحون فمن أراد أن ينظر
في خسره وربحه فليعرض نفسه على الكتاب والسنة فإن وافقهما فهو الرابح
إن صدق ظنه في موافقتهما وإن كذب ظنه فيا حسرة عليه وقد أخبر الله
بخسارة الخاسرين وربح الرابحين فأقسم بالعصر إن الإنسان لفي خسر إلا من
جمع أربعة أوصاف أحدها الإيمان والثاني العمل الصالح والثالث
التواصي بالحق والرابع التواصي بالصبر وقد روي أن الصحابة كانوا إذا
اجتمعوا لم يتفرقوا حتى يقرؤوها واختلف في العصر فقيل هي
الصلاة الوسطى صلاة العصر آخر النهار وقيل العصر الدهر واختلف
في الصالحات فقيل الفرائض وقيل جميع أعمال الصالحات واختلف
في الحق فقيل هو الله والتقدير وتواصوا بطاعة الحق وقيل الإسلام وقيل
القرآن والتقدير وتواصوا باتباع الحق كقوله اتبعوا ما أنزل إليكم من
ربكم وقوله اتبع ما أوحي إليك من ربك وأما الصبر فيحتمل أن يراد
به الصبر على الطاعات فيدخل فيه الصبر عن المعصية وعلى الطاعة ويحتمل
الصبر على المصائب والبليات ويحتمل الصبر على البليات والطاعات
وعن المعاصي والمخالفات واجتماع هذه الخصال في الإنسان عزيز نادر في
هذا الزمان وكيف يتحقق الإنسان أنه جامع لهذه الصفات التي أقسم
الله على خسران من خرج عنها وبعد عنها مع علمه بالنبي أقواله وشهود
[illegible] فكم من عاص يظن أنه مطيع ومن بعيد يعتقد أنه قريب ومن مخالف
يعتقد أنه موالف ومن منتهك يعتقد أنه متنسك ومن مدبر يعتقد

أنه مقبل ومن هارب يعتقد أنه طالب ومن جاهل يعتقد أنه عارف ومن
آمن يعتقد أنه خائف ومن مراء يعتقد أنه مخلص ومن ضال يعتقد أنه مهتد
ومن عمٍ يعتقد أنه مبصر ومن راغب يعتقد أنه زاهد كم من عمل
يعتمد عليه المرائي وهو وبال عليه وكم من طاعة يهلك بها المسمع وهي مردودة
إليه والشرع ميزان يوزن به الرجال وبه يتبين الربح والخسران فمن رجح
في ميزان الشرع كان من أولياء الله وتختلف مراتب الرجحان فأعلاها مراتب
الأنبياء فمن دونهم ولا تزال تتناقص الرتب إلى أن تنتهي إلى أقل مراتب
الرجحان ومن نقص في ميزان الشرع فأولئك أهل الخسران وتتفاوت خفتهم
في الميزان فأخسها مراتب الكفار ولا تزال المراتب تتناقص حتى تنتهي إلى مرتبة
مرتكب أصغر الصغائر **فإذا** رأيت إنسانا يطير في الهواء ويمشي على الماء
أو يخبر عن المغيبات ثم يخالف الشرع بارتكاب المحرمات بغير سبب ويترك
الواجبات بغير سبب مجوز فاعلم أنه شيطان نصبه الله فتنة للجهلة وليس
ذلك ببعيد من الأسباب التي وضعها الله للضلال فإن الدجال يحيي ويميت فتنة
لأهل الضلال وكذلك يأتي الخربة فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل وكذلك يظهر
للناس أن معه جنة ونارا وناره جنة وجنته نار وكذلك يأكل الحيات
ويدخل النيران ليعتقدوا به في ضلالته ويتابعوه على جهالته **فصل** في معرفة
تفضيل بعض الموجودات على بعض الجواهر والأجسام كلها
متساوية من جهة ذواتها وإنما يفضل بعضها على بعض بصفاتها وأعراضها
وانتسابها إلى الأوصاف الشريفة والفضائل النفيسة والفضائل ضربان
أحدهما فضائل الجمادات كفضل الجوهر على الذهب وفضل الذهب على الفضة
وفضل الفضة على الحديد وفضل الأنوار على الظلمات وفضل الشفاف على غير
الشفاف وفضل اللطيف على الكثيف والنير على المظلم والحسن على القبيح
الصورة الثاني فضائل الحيوان وهي أقسام أحدها حسن
الصور والثاني قوة الأجسام كالقوى الجاذبة والممسكة والدافعة

(عـــملى في الكتـــاب)

١ – قمت بتقسيم الكتاب إلى فقرات بإعطائها أرقاما* تسلسلية ، وإعطاء الهوامش أرقاما* خاصة مفردة .

٢ – خرَّجت مافي الكتاب من أحاديث نبوية ، مع ذكر درجة كل حديث .

٣ – عزوت الآيات إلى سورها مع ضبطها بالشكل ضبطاً كاملاً .

٤ – علقت على بعض النصوص معتمداً على أقوال السلف التى عارضت المصنف .

٥ – قمت بإعداد المقدمة للكتاب تشمل الحديث عن المصنف ، وكتابه ، والمخطوط ووصفه .

٦ – أعددت الفهارس العلمية التى تخدم الكتاب .

وبعد

فهذا فضل الله علينا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

فالحمد لله أولاً وآخراً

مجدى فتحى السيد إبراهيم



رسالة

في بيان أحوال الناس
وذكر الخاسرين والرابحين منهم

للإمام العلامة عز الدين أبي محمد عبد العزيز
ابن عبد السلام الشافعي
الشهير بالعز ابن عبد السلام
المتوفى سنة ٦٦٠



بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى أله وصحبه وسلم
وبه نستعين وماتوفيقى إلا بالله

أخبرنا المشايخ الأئمة نور الدين أبو الحسن على بن إسماعيل بن قريش المخزومى[1] ، ومجد الدين أبو إسحاق[2] إبراهيم بن على بن الخَيْمِى[3] فى آخرين إذناً قالوا :

أخبرنا الإمام شيخ الإسلام أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام السلمى الشافعى المؤلف إجازة قال :

فصل فى بيان أحوال الناس

معظم الناس خاسرون وأقلهم رابحون

١ – فمن أراد أن ينظر فى خسره وربحه فليعرض نفسه على الكتاب والسنة ، فإن وافقها فهو الرابح إن صدق ظنه فى موافقتها ، وإن كذب ظنه فيا حسرة عليه .

وقد أخبر الله بخسارة الخاسرين وربح الرابحين فأقسم بالعصر إن الإنسان لفى خسر إلا من جمع أربعة أوصاف :

---

(١) العدل ، سمع الزكى المنذرى ، والرشيد ، وكان صالحاً مكثراً ، توفى بمصر سنة ٧٣٢ هـ . انظر : شذرات الذهب (١٠٢/٦) .

(٢) فى بعض المراجع « أبو الفتح » فربما له أكثر من كنية .

(٣) سمع من والده ، والحافظ أبى الحسين يحيى بن على العطار ، وخرَّج له الحافظ أبو القاسم عبيد الإسعردى « جزءاً » من حديث بالإجازة عن جماعة . انظر : الدرر الكامنة (٤٩/١ – ٥٠) ، الوفيات للسلامى (٢٠٥/١) .

أحدها : الإيمان .

والثانى : العمل الصالح .

والثالث : التواصى بالحق .

والرابع : التواصى بالصبر .

وقد روى أن الصحابة اجتمعوا لم يفترقوا حتى يقرءوها[1] . واختلف فى العصر فقيل : هى الصلاة الوسطى ، صلاة العصر آخر النهار[2] .

وقيل : العصر الدهر[3] .

واختلف فى الصالحات ، فقيل : هن الفرائض[4]

وقيل : هى الأعمال الصالحات .

---

(١) أخرج الطبرانى فى الأوسط ، والبهقى فى شعب الإيمان عن أبى ملكية الدارمى – وكانت له صحبة – قال :

كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة « والعصر » إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر . انظر : الدر المنثور (٣٩١/٦ – ٣٩٢) ، والطبرانى عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبيد الله بن حصن ، كما فى تفسير ابن كثير (٥٤٧/٤) .

(٢) نقله مالك عن زيد بن أسلم ، كما فى تفسير ابن كثير (٥٤٧/٤) .

(٣) أخرجه ابن جرير الطبرى (١٨٧/٣٠) عن على بن أبى طالب ، وابن عباس ، وأخرجه الفريابى ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن الأنبارى فى المصاحف ، والحاكم (٥٣٤/٢) وصححه على شرط الشيخين ، وأقره الذهبى من قول على بن أبى طالب رضى الله عنه .

● وأخرج عبد بن حميد عن إسماعيل بن عبد الملك قال : سمعت سعيد بن جبير يقرأ قراءة ابن مسعود ، فذكره .

قلت : وسنده ضعيف ، فابن عبد الملك ، صدوق كثير الوهم كما فى التقريب (٧٢/١) ، وانظر : التهذيب (٣١٦/١) .

(٤) أخرجه ابن جرير الطبرى (١٨٧/٣٠) عن مجاهد .

واختلف فى الحق فقيل : هو الله والتقدير : وتواصوا بطاعة الحق .

وقيل : الإسلام ، وقيل القرآن[1] والتقدير

وتواصوا باتباع الحق كقوله : ﴿ اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[2] وقوله : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[3] .

وأما الصبر فيحتمل : أن يراد به الصبر على الطاعات[4] ، فيدخل فيه الصبر على المعصية ، وعلى الطاعة .

ويحتمل : الصبر على المصائب والبليات .

ويحتمل : الصبر على البليات والطاعات ، وعن المعاصى ، والمخالفات .

٢ – واجتماع هذه الخصال فى الإنسان عزيز نادر فى هذا الزمان وكيف يتحقق الإنسان أنه جامع لهذه الصفات التى أقسم الله على خسران من خرج عنها وبعد منها مع علمه بقبح أقواله وسوء أعماله فكم من عاص يظن أنه مطيع ، ومن بعيدٍ يعتقد أنه قريبٌ ، ومن مخالفٍ يعتقد أنه موالف ، ومن منتهكٍ يعتقد أنه متنسكٌ ، ومن مدبر يعتقد أنه مقبلٌ ، ومن هاربٍ يعتقد أنه طالبٌ ، ومن جاهل يعتقد أنه عارفٌ ، ومن آمنٍ يعتقد أنه خائفٌ ، ومن مراءٍ يعتقد أنه مخلصٌ ، ومن ضالٍ يعتقد أنه مُهتدٍ ، ومن عمٍ يعتقد أنه مبصرٌ ، ومن راغبٍ يعتقد أنه مخلصٌ .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ، وابن جرير (١٨٧/٣٠) ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم عن قتادة ، وانظر : الدر المنثور (٣٩٢/٦) .

(٢) سورة الأعراف : ٣ .

(٣) سورة الأحزاب : ٢ .

(٤) أخرجه ابن جرير (١٨٨/٣٠) عن الحسن ، وقتادة .

● أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣٩٢/٦) وعزاه إلى عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم عن قتادة .

كم من عملٍ يعتمد عليه المرائى وهو وبال عليه ، وكم من طاعةٍ يهلك بها المتسمع مردودة إليه ، والشرع ميزان يوزن به الرجال ، وبه يتبين الربح والخسران ، فمن ربح من ميزان الشرع كان من أولياء الله .

وتختلف مراتب الرجحان فأعلاها مراتب الأنبياء فمن دونهم ، ولا تزال تتناقص الرتب إلى أن تنتهى إلى أقل مراتب الرجحان .

ومن نقص فى ميزان الشرع فأولئك أهل الخسران وتتفاوت خفتهم فى الميزان ، فأخفها مراتب الكفار ، ولا تزال تتناقص حتى تنتهى إلى مرتبة مرتكب أصغر الصغائر .

فإذا رأيت إنساناً يطير فى الهواء ، أو يمشى على الماء ، أو يخبر عن المغيبات ثم يخالف الشرع بارتكاب المحرمات بغير سبب ، ويترك الواجبات بغير سبب مجوّز فاعلم أنه شيطان نصبه الله فتنة للجهلة ، وليس ذلك ببعيدٍ من الأسباب التى وضعها الله للضلال ، فإن الدجال يحيى ويميت فتنة لأهل الضلال ، وكذلك يأتى الخربة فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل[1] . وكذلك يظهر للناس أن معه جنةٍ وناراً ، وناره جنة ، وجنته نار[2] ، وكذلك يأكل الحيات ، ويدخل النيران ليقتدوا به فى ضلالته ويتابعوه على جهالته .

* * *

(١) يعاسيب النحل : هى ذكورها ، والمراد جماعتها لا ذكورها خاصة ، ولكنه كنى عن الجماعة باليعسوب وهو أميرها ، لأنه متى طار تبعته جماعته .

(٢) انظر : صحيح مسلم (٥٩/١٨ - ٦٧ نووى) ، وأبو داود (٤٣٢١) ، والترمذى (٢٣٤١) ، وابن ماجه (٤٠٧٧) ، والحاكم (٥٣٦/٤) فى مستدركه .

فصل فى معرفة تفضيل بعض الموجودات الحادثات[1] على بعض الجواهر[2]

٣ - الأجسام كلها متساوية من جهة ذواتها ، وإنما يفضل بعضها على بعض بصفاتها وأعراضها ، وانتسابها إلى الأوصاف الشريفة ، والفضائل النفيسة .

والفضائل ضربان : أحدهما فضائل الجمادات كفضل الجوهر على الذهب ، وفضل الذهب على الفضة ، وفضل الفضة على الحديد ، وفضل الأنوار على الظلمات ، وفضل الشفاف على غير الشفاف ، وفضل اللطيف على الكثيف ، والنير على المظلم ، والحسن على القبيح .

الضرب الثانى : فضائل الحيوان وهى أقسام : أحدها : حسن الصور ، **والثانى** قوة الأجسام كالقوى الجاذبة ، والممسكة ، والدافعة ، والغازية ، والقوى على الجهاد ، والقتال ، وحمل الأعباء والأثقال .

والثالث : الصفات الداعية **للخيور** ، والوارعة عن الشرور كالغيرة والنخوة ، والحياء ، والشجاعة ، والحلم ، والإناة ، والسخاء .

الرابع : العقول

الخامس : الحواس .

---

(١) الحديث : نقيض القديم ، والحدوث : كون شىء لم يكن ، والحادثات : الأشياء التى طرأت بحدوثٍ بعد عدمٍ .

(٢) الجوهر : معروف ، والواحدة منه جوهرة ، وجوهر الشىء أى ما خُلق وجُبل عليه ، والجواهر : الأشياء الثابتة الأصلية فى ذاتها ، وقيل : الجوهر فارسى معرب .

السادس : العلوم المكتسبة وهى أقسام : أحدها : معرفة وجود الإله وصفاته الذاتية ، والسلبية والفعلية .

الثانى : معرفة إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وتنبئة الأنبياء .

الثالث : معرفة ماشرعه الله فى الأحكام الخمسة وأسبابها ، وشرائطها ، وموانعها .

السابع : الأحوال الناشئة عما ذكرناه من المعارف كالخوف والرجاء ، والمحبة ، والحياء ، والتوكل ، والتعظيم، والإجلال .

الثامن : القيام بطاعة الله فى كل ما أمر به أو نهى عنه .

التاسع : مارتبه الله على هذه المعارف ، والأحوال ، والطاعات من لذات الآخرة ، وأفراحها بالنعيم الجثمانى ، والروحانى كلذة الأمن من عذاب الله ، والأنس بقربه وجواره ، وسماع سلامه وكلامه ، وتبشيره بالرضى الدائم ، وكذلك النظر إلى وجهه الكريم مع الخلاص من العذاب الأليم .

فهذه فضائل بعضها أفضل من بعض ، فمن اتصف بأفضلها كان أفضل البرية ، ولا شك أن معرفة الله ، ومعرفة صفاته ولذات رضاه والنظر إلى وجهه أفضل مما عداهن ، وأفضل الملائكة من كان به أفضل هذه الصفات ، فإن تساوى اثنان من الملائكة فى ذلك لم يفضل أحدهما عن الآخر ، وكذلك إن تساوى الملك والبشر فى ذلك لم يفضل أحدهما على الآخر ، وإن فضل البشر على الملك بشىءٍ من ذلك كان أفضل منه ، وإن فضل الملك على البشر بشىءٍ من ذلك كان أفضل منه . والفضل منحصر فى أوصاف الكمال ، والكمال إما بالمعارف ، والطاعات ، والأحوال . وإما بالأفراح واللذات ، فإذا أحسن إلى أجساد الأنبياء بما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشرٍ ، وأحسن إلى أرواحهم بالمعارف الكاملة ، والأحوال المتوالية ، وأذاقهم لذة النظر إليه ، وسرور

رضاه عنهم ، وكرامة تسليمه عليهم فمن أين للملائكة مثل هذا ؟!

٤ - واعلم أن الأجساد مساكن الأرواح ، وللساكن ، والمسكن أحوال :

أحدها : أن يكون الساكن أشرف من المسكن .

الثانية : أن يكون المسكن أشرف من الساكن .

الثالثة : إن استويا فى الشرف فلا يفضل أحدهما على الآخر ، وإذا كان الشرف للساكن فلا مبالاة بخساسة المسكن ، وإذا كان الشرف للمسكن فلا يتشرف به الساكن ، والاجساد مساكن الأرواح .

وقد اختلف الناس فى التفضيل الواقع بين البشر ، والملك[1] ، فإن فاضل بينهما مفضل من جهة تفاوت الأجساد التى هى مساكن الأرواح ، فلا شك أن أجساد الملائكة أفضل وأشرف من أجساد البشر المركبة من الأخلاط المستقذرة .

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

الكلام إما أن يكون فى التفضيل بين الجنس : الملك والبشر ، أو بين صالحى الملك والبشر .

أما الأول ، وهو أن يقال أيهما أفضل الملائكة ، أو البشر ؟ فهذه كلمة تحتمل أربعة أنواع :

النوع الأول : أن يقال هل كل واحد من آحاد الناس أفضل من كل واحد من آحاد الملائكة ، فهذا لا يقوله عاقلٌ ، فإن فى الناس : الكفار ، والفجار ، والمنافقين ، والمستكبرين ، والمؤمنين ، وفيهم من هو مثل البهائم .

النوع الثانى أنه يقال : مجموع الناس أفضل من مجموع الملائكة من غير توزيع الأفراد ، وهذا على القول بتفضيل صالحى البشر على الملائكة فيه نظر ، لا علم لى بحقيقته ، فإنا نفضل مجموع القرن الثانى على القرن الثالث ، مع علمنا أن كثيراً من أهل القرن الثالث أفضل من كثير من أهل القرن الثانى .

النوع الثالث : أنَّا إذا قابلنا الفاضل بالفاضل ، والذى يلى الفاضل بمن يليه من الجنس الآخر ، فأى القبيلين أفضل ؟ فهذا مع القول بتفضيل صالحى البشر يقال : لا شك أن

وإن فاضل بين أرواح البشر ، وأرواح الملائكة مع قطع النظر عن الأجساد التى هى مساكن الأرواح ، فأرواح الأنبياء أفضل من أرواح الملائكة ، لأنهم فضلوا عليهم من وجوه :

أحدها : الإرسال ، ورسل الملائكة قليل ، ولأن رسول الملائكة يأتى إلى نبى واحدٍ ، ورسول البشر يأتى إلى الأمم ، وإلى أمةٍ واحدةٍ ، فيهديهم الله على يديه ، فيكون له أجر تبليغه ، ومثل أجر من اهتدى على يديه ، وليس مثل هذا للملك .

الوجه الثانى : القيام بالجهاد فى سبيل الله .

المفضولين من الملائكة أفضل من كثيرٍ من البشر ، وفاضل البشر أفضل من فاضليهم ، لكن التفاوت الذى بين « فاضل الطائفتين » أكثر ، والتفاوت بين « مفضولهم » هذا غير معلوم .

النوع الرابع : أن يقال : حقيقة الملك ، والطبيعة الملكية أفضل ، أم حقيقة البشر ، والطبيعة البشرية ؟

وهذا كما أنّا نعلم أن حقيقة الحى إذ هو حى أفضل من الميت ، وحقيقة القوة والعلم من حيث هى أفضل من حقيقة الضعف والجهل .

والوجه فى انحصار القسمة فى هذه الأنواع ، فإن كثيراً من الكلمات المهمة تقع الفتيا فيها مختلفة ، والرأى مشتبهاً ، لفقد التمييز والتفضيل ، أن كل شىء إما أن نقيده من جهة الخصوص ، أو العموم ، أو الإطلاق .

فإذا قلت : بشر وملك ، فإما أن تريد هذا البشر الواحد فيكون خاصاً ، أو جميع جنس البشر فيكون عاماً ، أو تريد البشر مطلقاً مجرداً عن قيد العموم ، والخصوص ، وضبطه القليل والكثير ، والنوع الأول فى التفضيل عموماً وخصوصاً ، والثانى عموماً ، والثالث : خصوصاً ، والرابع : فى الحقيقة المطلقة .

فنقول حينئذ : المسألة على هذا الوجه لست أعلم فيها مقالة سابقة مفسرة ، وربما ناظر بعض الناس على تفضيل الملك ، وبعضهم على تفضيل البشر ، وربما اشتبهت هذه المسألة بمسألة التفضيل بين الصالح وغيره .

لكن الذى سنح لى - والله أعلم بالصواب - أن حقيقة الملك أكمل وأرفع ، وحقيقة الإنسان أسهل وأجمع . انتهى مختصراً .

انظر : مجموع الفتاوى (٤/٣٥٠ - ٣٩٢) .

الوجه الثالث : الصبر على مصائب الدنيا ، ومحنتها ، والله يحب الصابرين .

الوجه الرابع : الرضا بمُرّ القضاء وحلوه .

الوجه الخامس : نفع العباد بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ودفع المكاره ، وجلب المنافع ، وليس للملائكة شيء من هذا .

الوجه السادس : ما أعد الله فى الآخرة لعباده الصالحين ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ولم يثبت للملائكة شيء من هذا .

الوجه السابع : ما أعد الله لهم فى الآخرة من النعيم الروحانى ، كالأنس ، والرضا ، والنظر إلى وجهه الكريم، ولم يثبت مثل هذا للملائكة .

فإن قيل : الملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، والأنبياء ينامون ويفترون ؟

قلت : إذا فتر الأنبياء عن التسبيح فقد يأتون فى حال فتورهم من الثناء على الرب ، ومن الطاعات والعبادات مما هو أفضل من التسبيح ، والنوم مختص بأجسادهم ، وقلوبهم متيقظة غير نائمة ، وسيساوونهم فى الآخرة فى إلهام التسبيح كما يلهمون النفس .

الوجه الثامن : وهو مختص بآدم عليه السلام ، أن الله عرفه من أسماء كل شيء ، ومنافعه مما لا يعرفون .

الوجه التاسع : وهو أيضاً مختص به أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم ، ولا شك أن المسجود له أفضل من الساجدين .

وعلى الجملة فما يفضل الملائكة على الأنبياء إلا من بنى التفضيل على خيالات توهمها ، وأوهام فاسدة اعتمدها .

وكم يتقرر فى الخيالات ، والتوهمات من أمورٍ يعلم الله خلافها ؟!!

بل قد يرى الإنسان اثنين فيظن أحدهما أفضل من الآخر لما يراه من طاعته الظاهرة ، والآخر أفضل منه بدرجات كثيرة ، لما اشتمل عليه من المعارف والأحوال ، والقليل من الأعمال ، ألا عرف خير القليل من الكثير من أعمال العارف ؟!

وأين الثناء من المستحضرين لأوصاف الجلال ، ونعوت الكمال من ثناء المسبحين بألسنتهم ، الغافلين بقلوبهم .

ليس التكحل فى العينين كالكَحَل

ليس استجلاب الأحوال باستذكار المعارف كحضور المعارف بغير سعى ، ولا اكتساب .

فإن قيل : سلمنا أن الأنبياء فضلوا الملائكة بما ذكرتم ، وأن أجساد الملائكة فضلت أجساد الأنبياء بما ذكرتموه ، ومعظم الفضائل إنما هو بشرف المعارف والأحوال ، فلم قلتم : أن الأنبياء أفضل من الملائكة فى ذلك ؟

قلنا : أنتم مطالبون بمثل هذا ، ثم لا يخلو ماذكرتموه من أحوال :

أحدها : أن يستوى الملك والنبى فى المعارف ، والأحوال ، فتفضل الأنبياء على الملائكة بما ذكرناه من نعيم الجنان ، ورضا الديان ، والنظر إلى الرحمن .

الثانية : أن تكون الأنبياء أفضل من الملائكة بالمعارف والأحوال ، مع ما انضم إليه من الأعمال ونعيم الجنان ، ورضا الديان ، والنظر إلى الرحمن ، فتكون الأنبياء أفضل من الملائكة بثلاثة أسباب .

الثالثة : أن يكون الملك أفضل بالمعارف والأحوال من النبى ، فيكون النبى أفضل من الملك بما ذكرناه من العبادات المختصة به : تنعيم الجنان ، ورضا الديان ، والنظر إلى الرحمن ، ولا عبرة بفضل أجسادهم على أجساد الأنبياء ، لأن الأجساد مساكن ، ولا شرف بالمساكن ، وإنما الشرف بالأوصاف القائمة بالساكن ،

والاعتبار إنما هو السكانين دون الساكن ، فإن الأنبياء قد سكنوا فى بطون أمهاتهم مع القطع بأنهم أفضل من أمهاتهم .

نَفْسُ عِصامٍ سَوَّدَتْ عِصاما[1]

فروح المسيح أفضل من جسد مريم ، وكذلك روح إبراهيم عليه السلام أفضل من جسد أمه ، وكذلك روح الرسول عليه السلام أفضل من جسد أمه .

٨ – وأما من كفر من أولاد المؤمنات فهم شر البلية ، ومساكنهم خير منهم ، فإذا حملت مؤمنة بكافر كان جسدها خيراً من روحه ، إذ قام بروحه أخبث الصفات ، وهو الكفر برب الأرضين ، والسموات .

فإن قيل : أين محل الروح من الأجساد ؟

قلنا : فى كل جسد روحان : أحدهما : « روح اليقظة » وهى الروح التى أجرى الله العادة أنها إذا كانت فى الجسد كان الإنسان مستيقظاً فإن خرجت من الجسد نام الإنسان ، ورأت تلك الروح المنامات إذا فارقت الجسد ، فإذا رأتها فى السموات صحت الرؤيا إذ لا سبيل للشياطين إلى السموات ، وإن رأتها دون السماء كانت من إلقاء الشياطين وتجريهم ، فإن رجعت هذه الروح إلى الجسد استيقظ الإنسان كما كان .

الروح الثانية : « روح الحياة » وهى الروح التى أجرى الله العادة أنها إذا كانت فى الجسد كان حياً ، فإذا فارقته مات الجسد ، فإن رجعت إليه حَيِىَ الجسد .

---

(١) فى المثل : كن عِصامِيّاً ولا تكن عِظامِيّاً ، يريدون به قوله :

نفس عصام سودت عصاما

وصيرته ملكاً هماما

وعلمته الكَرَّ والإقداما

وقولهم : ما وراءك يا عصام ، هو اسم حاجب النعمان بن المنذر ، وهو عصام بن سهبر الجرمى .

وهاتان الروحان فى باطن الإنسان لا يعرف أين مقرهما إلا من أطلعه الله على ذلك فهما كجنينين فى بطن امرأة واحدة .

وقد يكون فى باطن الإنسان روح ثالثة ، وهى روح الشيطان ومقرها الصدر بدليل قوله : ﴿ الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ ﴾[1] وجاء فى الحديث الصحيح : « إنَّ المتثائبَ إذَا قَالَ هَاه هَاه ضَحكَ الشَّيْطَانُ فِى جَوْفِهِ »[2]

وجاء فى الحديث : « إنَّ لِلْمَلَكِ لَمَّةً[3] وإنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً »[4] .

٩ – وقال بعض المتكلمين : الذى يظهر أن الروح بقرب القلب[5] ولا يبعد عندى أن تكون الروح فى القلب ، ويجوز أن يحضر الملك فى باطن الإنسان حيث محل الروحان ، ويحضر الشيطان ، ويجوز واحدة من هذه الأرواح أن تكون

---

(١) سورة الناس : ٥ .

(٢) صحيح . أخرجه بنحوه البخارى (٦٢٢٣) ، (٦٢٢٦) ، وأحمد (٢٤٢/٢ ، ٢٦٥ ، ٣٩٧ ، ٤٢٨ ، ٥١٧) ، وأبو داود (٥٠٢٨) ، والترمذى (٢٨٩٥) ، وابن ماجه (٩٦٨) .

(٣) لمة : قرب وإصابة من الإلمام ، وهو القرب .

(٤) ضعيف . أخرجه الترمذى (٣١٧٣) وقال : حديث غريب ، وابن حبان (١٧١/٢) ، وابن جرير الطبرى (٥٩/٢) فى تفسيره .

● وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٣٤٨/١) وعزاه إلى النسائى ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى شعب الإيمان .

● كلهم من طريق أبى الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرة الهمدانى عن عبد الله مرفوعاً وهذا سندٌ ضعيفٌ ، فإن عطاء بن السائب قد اختلط ، وسماع أبى الأحوص ، وهو سلام بن سليم منه بعد الاختلاط .

● أخرجه موقوفاً بسندٍ صحيحٍ ، ابن جرير فى تفسيره (٥٩/٢) من أكثر من طريق ، والطبرانى (٨٥٣٢) فى الكبير .

(٥) الأصح فى هذه القضية هو عدم الخوض كما قال عز وجل ﴿ ويسألونك عن الروح . قل الروح من أمر ربى ﴾ .

جوهراً فرداً ، يقوم به ما يليق به من الصفات الخسيسة والنفيسة ، ويجوز أن تكون كل واحدة منهن جسماً لطيفاً حياً سميعاً بصيراً عليماً قادراً مريداً متكلماً ، فيكون حيواناً كاملاً فى داخل حيوان ناقصٍ حياً فى بطن حى ، سميعاً فى بطن سميعٍ ، بصيراً فى بطن بصيرٍ ، عالماً فى بطن عالمٍ قديراً فى بطن قادرٍ ، مريداً فى بطن مُريد ، متكلماً فى بطن متكلمٍ .

وقد أجرى الله العادة بأن الجسد إذا أبصر شيئاً أبصره روحه ، وإذا سمع شيئاً سمعه روحه ، وإذا أدرك شيئاً أدركه روحه ، ويجوز أن تكون الأرواح كلها نورانية لطيفة شفافة . ويجوز أن يختص ذلك بأرواح المؤمنين ، والملائكة دون أرواح الجن والشياطين ، ويدل على أن الأرواح فى الأجساد قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ . وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾[1] .

١٠ – ويدل على وجود روح الحياة قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾[2] وقوله عليه السلام : « إِنَّ الروحَ إِذَا خَرَجَتْ يَتْبَعُها البَصَرُ »[3] وقوله تعالى : ﴿ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[4] وأجمع المفسرون على أن المراد المبالغة أى البلوغ التى ترجع إلى الجسد روح الإنسان .

وكذلك قوله : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾[5] وقوله : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾[6] تقديره : فنفخنا فى جثتها من روحنا .

ويدل على وجود روح الحياة واليقظة قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[7] تقديره : حين موت أجسادها فى نومها فيمسك الأنفس التى قضى

---

(١) سورة الواقعة : ٨٣ – ٨٤ .

(٢) سورة السجدة : ١١ .

(٣) صحيح . أخرجه أحمد (٦/٢٩٧) ، ومسلم (٩٢٠) وابن ماجه (١٤٥٤) ، وابن حبان (٩/٩٣) ، والبيهقى (٣/٣٣٤) فى سننه الكبرى .

قال القاضى عياض رحمه الله : يحتمل أن الملك المتوفى للمحتضر يتمثل له فينظر إليه نظراً =

عليها الموت عنده ، ولا يرسلها إلى أجسادها ، ويرسل الأنفس الأخرى ، وهى أنفس اليقظة إلى أجسادها إلى انقضاء أجل مسمى ، وهو أجل الموت فحينئذ تقبض أرواح الحياة ، وأرواح اليقظة جميعاً من الأجساد ، ولا تموت أرواح الحياة بل ترفع إلى السماء حية فتطرد أرواح الكافرين ، ولا تفتح لها أبواب السماء وتفتح أبواب السموات لأرواح المؤمنين إلى أن تعرض على رب العالمين فيالها من عرضة ما أشرفها .

* * *

= شزراً ، ولا ترتد إليه طرفه حتى تفارقه الروح وتضمحل بقايا القوى ، ويبطل البصر على تلك الهيئة ، فهو علة للشق ، ويحتمل كونه علة للإغماض ، لأن الروح إذا فارقته تتبعه الباصرة فى الذهاب ، فلم يبق لانفتاح بصره فائدة .

وقال النووى : معناه : إذا خرج الروح من الجسد تبعه البصر ناظراً أين تذهب .

وتعقبه السيوطى بأنه يبصر مادام الروح فى البدن ، فإذا فارقه تعطل الإبصار كما يتعطل الإحساس .

قال : والذى ظهر لى بعد النظر ثلاثين سنة أن يجاب بأحد الأمرين :

الأول : أن ذلك بعد خروج الروح من أكثر البدن ، وهى بعد باقية فى الرأس والعين ، فإذا خرج من الفم أكثرها ، ولم تنته كلها نظر البصر إلى القدر الذى خرج ، وقد ورد أن الروح على مثال البدن ، وقد أعضائه ، فإذا خرج بقيتها من الرأس والعين ، سكن النظر ، فيكون قوله (إذا قبض) معناه : إذا شرع فى قبضه ولم ينته .

الثانى : أن الروح لها اتصال بالبدن ، وإن كانت خارجة عنه ، فيرى ويسمع ، ويعلم ، ويرد السلام ، ويكون هذا الحديث من أقوى الأدلة على ذلك . انظر : فيض القدير (٣٤٣/٢) .

(٤) سورة الواقعة : ٨٧ .

(٥) سورة الحجر : ٢٩ .

(٦) سورة التحريم : ١٢ .

(٧) سورة الزمر : ٤٢ .

وتكون الأرواح فى القبور مجردة عن الأجساد منعمة بالثواب أو معذبة بالعقاب إلى أن ينفخ فى الصور النفخة الأولى فيقولوا ﴿ يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾[1] .

ثم ترد الروحان إلى الأجساد فى القبور لمسائلة منكر ونكير ، فإذا دنا البعث والنشور ، توفيت أرواح اليقظة فناموا مقدار أربعين عاماً فإذا نفخ فى الصور عادت أرواح اليقظة إلى الأجساد فقال الكفار حينئذ :

﴿ ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ أى من أيقظنا من رقادنا فقال لهم الملائكة أو المؤمنون : هذا البعث الذى وعدكموه الرحمن وصدق المرسلون فى إخبارهم عن البعث والنشور .

* * *

(١) سورة يٓس : ٥٢ .

١١ - وقد اختلف العلماء فى مقر الأرواح فى البرزخ ماعدا أرواح الشهداء فإن الله تعالى أسكنها فى أجواف طير خضر تأكل تلك الطيور من ثمار الجنة ، وتشرب من أنهارها ، وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش[١] .

١٢ - وقالت طائفة : الأرواح بأفنية القبور[٢] ولذلك سلم رسول الله ﷺ عليهم وأمر بالتسليم عليهم وقال : « السَّلَام عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ والْمُسْلِمينَ »[٣].

وأهل الدار فى عرف الناس : من سكن الدار أو كان بفناء الدار ، وقد أمر بالاستعاذة من عذاب القبر ومرَّ بقبرين فقال : « إِنَّهُمْا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبان فِى كَبِيرٍ »[٤] وهذا يدل على أن الأرواح فى القبور دون أفنيتها ، وهو المختار .

وكذلك قال عليه السلام فى المؤمن : « وَيُفْسَح لَهُ فِى قَبْرِهِ ويُمْلأُ عَلَيْهِ خَضِراً إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ »[٥] .

١٣ - **وقد قيل** : إن الأنبياء ترفع أجسادهم ، ولم يثبت ذلك . وزعمت طائفة أن أرواح الكفار ببئر هوت بئر فى اليمن[٦]. وظاهر السنةإلى مفاسد الدنيا، ومصالحها فمن آثر الأولى على الآخرة فى جلب المصالح ودرء المفاسد ، فإنه خاسر مغبون ، فإن مصالح الآخرة محضة لايشوبها مفسدة ، ومفاسدها محضة لا يشوبها مصلحة . فأما الدنيا فقل أن تتجرد مصالحها عن مفاسدها وهى دار الأحزان ،

---

(١) أخرج أحمد (٢٦٦/١) ، وأبو داود (٢٥٠٣) ، والحاكم (٢٩٧/٢ - ٢٩٨) ، وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبى ، من حديث ابن عباس بلفظ : « لما أصيب إخوانكم بأُحد ، جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهبٍ معلقة فى ظل العرض .... »

● وأخرج أحمد (٣٨٦/٦) ، والترمذى (١٦٩١) وقال : حسن صحيح ، من حديث كعب بن مالك ، بلفظ : « أرواح الشهداء فى طير خضر تعلق فى شجر الجنة »

● وأخرج مسلمٌ (١٨٨٧) عن ابن مسعود بلفظ : « أرواحهم فى جوف طير خضر ، =

والهموم والغموم ، وما بلغنا أن أحداً من العوالم يشق فى الآخرة كشقاوة عصاة الإنس والجن ، ولا يسعد كسعادة مؤمنى الإنس والجن فلمثل هذه السعادة فليعمل العاملون ، وفيها فليتنافس المتنافسون .

لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل »

● وأخرج هناد بن السرى فى كتاب الزهد ، وابن مندة عن أبى سعيد الخدرى ، نحوه ، كما فى شرح الصدور (ص/٢٣٠) للسيوطى .

(٢) قال ابن القيم - رحمه الله - فى الروح (ص/١٣٤) :

وأما قول من قال : الأرواح على أفنية قبورها .

فإن أراد أن هذا أمر لازم لها ، لا تفارق أفنية القبور أبداً ، فهذا خطأ ترده نصوص الكتاب والسنة من وجوه كثيرة ، وإن أراد أن تكون على أفنية القبور وقتاً أولها إشراف على قبورها ، وهى فى مقرها فهذا حقّ ، ولكن لا يقال مستقرها أفنية القبور .

وقد ذهب إلى هذا المذهب جماعة منهم أبو عمر بن عبد البر ، وقد استدل بحديث ابن عمر « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى »

وهو أصح ما ذهب إليه فى ذلك من طريق الأثر ، ومثل سائر أحاديث السلام على أهل القبور وخطابهم ، ومعرفتهم بزيارة الأحياء لهم ، وقد تقدم ذكر ذلك كله ، وهذا القول ترده السنة الصحيحة ، والآثار التى لا مدفع لها ، وقد تقدم ذكرها ، وكل ما ذكره من الأدلة فهو يتناول الأرواح التى هى فى الجنة بالنص ، وفى الرفيق الأعلى ، وقد بينا أن عرض مقعد الميت عليه فى الجنة أو النار ، لا يدل على أن الروح فى القبر ، ولا على فنائه دائماً من جميع الوجوه ، بل لها إشرافٌ واتصالٌ بالقبر وفنائه ، وذلك القدر منها يعرض عليه مقعده ، فإن للروح شأناً آخر تكون فى الرفيق الأعلى فى أعلى عليين ، ولها اتصالٌ بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على الميت رد الله عليه روحه فيرد عليه السلام ، وهى فى الملأ الأعلى ، وإنما يغلط أكثر الناس فى هذا الموضع حيث يعتقد أن الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التى إذا شغلت مكاناً لم يمكن أن تكون فى غيره ، وهذا غلط محض ، بل الروح تكون فوق السموات فى أعلى عليين ، وترد إلى القبر فترد السلام ، وتعلم بالمسلم ، وهى فى مكانها هناك ، وروح رسول الله ﷺ فى الرفيق الأعلى دائماً ، ويردها الله سبحانه إلى القبر فترد السلام على من سلم عليه ، وتسمع كلامه ، وقد رأى رسول الله ﷺ موسى قائماً يصلى فى قبره ، ورآه فى السماء السادسة أو السابعة ، فإما أن تكون سريعة الحركة ، والإنتقال كلمح البصر ، وإما أن يكون المتصل منها بالقبر وفنائه بمنزلة شعاع الشمس وجرمها فى

....

=السماء . انتهى مختصراً .

● ونقل ابن رجب الحنبلى فى أهوال القبور (ص/١١٢) أن مجاهداً رحمه الله قال : الأرواح على القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لا تفارقه .

ثم قال : واستدل هو وغيره بحديث ابن عمر « إذا مات أحدكم عرض ... » وهذا يدل على أن الأرواح ليست فى الجنة ، وإنما تعرض عليها بكرة وعشياً ، وكذا ذكره ابن عطية وغيره ، ولا حجة لهم فيه لوجهين :

أحدهما : أنه يحتمل أن يكون العرض بكرة وعشياً على الروح المتصل بالبدن ، والروح وحدها فى الجنة ، فتكون البشارة ، والتخويف للجسد فى هذين الوقتين باتصال الروح به . وأما الروح أبداً فى تنعم أو عذاب .

والثانى : أن الذى يعرض بالغداة والعشى هو مسكن ابن آدم ، الذى يستقر فيه فى الجنة أو النار ، وليست الأرواح مستقرة فيه مدة البرزخ ، وإن كانت فى الجنة أو النار . انتهى .

(٢) صحيح . أخرجه مسلم (٩٧٤) ، وأحمد (٢٢١/٦) ، والنسائى (٩٣/٤) ، وابن ماجه (١٥٤٦) كلهم من حديث عائشة .

● وأخرجه مسلم (٩٧٥) ، والنسائى (٩٤/٤) ، وابن ماجه (١٥٤٧) كلهم من حديث بريدة .

[فائدة عظيمة] : قال العلامة ابن القيم رحمه الله : —

وأما السلام على أهل القبور وخطابهم ، فلا يدل على أن أرواحهم ليست فى الجنة ، وأنها على أفنية القبور ، فهذا سيد ولد آدم الذى روحه فى أعلى عليين مع الرفيق الأعلى ، يسلم عليه عند قبره ، ويرد سلام المسلم عليه . انتهى . انظر : الروح (ص/١٣٦) .

● وقال العلامة ابن رجب الحنبلى رحمه الله :—

السلام على أهل القبور لا يدل على استقرار أرواحهم على أفنية قبورهم ، فإنه يسلم على قبور الأنبياء، والشهداء ، وأرواحهم فى أعلى عليين ، ولكن مع ذلك لها اتصالٌ سريع فى الجسد ، ولا يعلم كون ذلك ، وكيفيته على حقيقته إلا الله عز وجل ، وتشهد لذلك الأحاديث المرفوعة والموقوفة على أصحابه ، ومنهم عبد الله بن عمرو ابن العاص فى أن النائم يُعرج بروحه إلى العرش مع تعلقها ببدنه ، وسرعة عودها إليه عند استيقاظه ، فأرواح الموتى =

....

= المتجردة عن أبدانهم أولى بعروجها إلى السماء وعودها إلى القبر فى مثل تلك السرعة ، والله أعلم . انظر : أهوال القبور (ص/١١٣) .

(٤) صحيح . أخرجه البخارى (١٣٧٨) ، ومسلم (٢٩٢) ، وأبو داود (٢٠) ، والترمذى (٧٠) ، وابن ماجه (٣٤٧) ، وأحمد (١/٢٢٥) ، (٥/٣٥) .

[فائدة] : قوله : (وما يعذبان فى كبير) قد ذكر العلماء أكثر من قول :

الأول : أنه ليس بكبير فى زعمهما .

والثانى : أنه ليس بكبير تركه عليهما .

والثالث : أى ليس بأكبر الكبائر .

(٥) صحيح . أخرجه البخارى (١٣٧٤) ، ومسلم (٢٨٧٠) ، وأحمد (٣/١٢٦) .

[فائدة لغوية] قوله (خَضِراً) الخضر ضبطوه بوجهين ، أصحهما بفتح الخاء ، وكسر الضاد ، والثانى : بضم الخاء وفتح الضاد ، والأول أشهر .

ومعناه : يملأ نعماً غضة ناعمة ، وأصله من خضرة الشجرة .

(٦) ورد فى هذا القول عدة آثار ، هذا بعضها والحكم عليها :

● أخرج ابن منده من طريق همام بن يحيى عن المسعودى عن قتادة قال : حدثنى رجلٌ عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن عمرو قال :

إن أرواح المؤمنين تجتمع بالجابية ، وأما أرواح الكافرين فتجتمع بسبخة بحضرموت يقال له : برهوت .

ورواه هشام الدستوائى عن قتادة عن سعيد بن المسيب من قوله ، ولم يذكر عبد الله بن عمرو . انظر : أهوال القبور لابن رجب (ص/١١٥) .

قلت : سنده ضعيف ، فيه جهالة أحد الرواة ، وعنعنة قتادة ، وكان يدلس .

● وأخرج ابن منده من طريق فرات الفزارى عن أبى الطفيل عن على قال : شر واد بئر فى الأحقاف برهوت بحضرموت ، ترده أرواح الكفار .

قال : رواه حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس عن على قال :

أبغض بقعة فى الأرض واد بحضرموت يقال له : برهوت فيه أرواح الكفار ، وفيه بئر =

....

=ماؤه فى النار أسود ، كأنه قيح تأوى إليه الهوام .

قلت : وهذا سنده ضعيف ، فيه ابن زيد بن جدعان من الضعفاء ، وابن مهران لين الحديث .

● وروى بإسناده عن شهر بن حوشب أن كعباً رأى عبد الله بن عمرو وقد تكالب الناس عليه يسألونه ، فقال رجلٌ لرجلٍ : سله أين أرواح المؤمنين ؟ قال بالجابية ، وأرواح الكفار ببرهوت .

وسنده ضعيف ، فيه شهر بن حوشب من الضعفاء ، وإن كان فى الشواهد حسن الحديث .

● وبإسناده عن سفيان عن أبان بن تغلب قال : قال رجلٌ : بت فيه يعنى وادى برهوت ، كأنما حشدت فيه أرواح الكفار ، وهم يقولون : يا دومه .

قلت : وسنده ضعيف ، فيه جهالة الراوى .

● وقال ابن قتيبة فى كتابه (غريب الحديث) ذكر الأصمعى عن رجلٍ من أهل برهوت يعنى البلد الذى فيه هذا البئر ، قال : تجد الرائحة المنتنة الفظيعة جداً ، ثم تمكث فيأتينا الخبر بأن عظيماً من عظماء الكفار قد مات ، فنرى أن تلك الرائحة منه .

قلت : سنده ضعيف الراوى من المجهولين .

● قال : وقال ابن عيينة : أخبرنى رجلٌ أنه أمسى ببرهوت ، فكأن فيه أصوات الحاج . قال : وسألت أهل حضرموت . فقال : لا يستطيع أحدنا أن يمسى فيه .

قلت : إسناده ضعيف ، الراوى من المجهولين .

● وأخرج المروزى وابن مندة فى الجنائز ، وابن عساكر ، عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : إن أرواح الكفار تجمع ببرهوت سبخة بحضرموت ، وأرواح المؤمنين بالجابية ، برهوت باليمن ، والجابية بالشام .

أورده السيوطى فى شرح الصدور (ص/٢٣٦ - ٢٣٧) .

● وأخرج أبو بكر النجار فى حزبه المشهور عن على بن أبى طالب مثل الذى مضى عنه من قبل ، انظر المصدر السابق (ص/٢٣٧) .

● قال ابن رجب الحنبلى رحمه الله : رجحت طائفة من العلماء أن أرواح الكفار فى بئر =

١٤ – **فإن قيل** : إذا أتى جبريل النبى عليهما الصلاة والسلام فى صورة دحية ، فأين تكون روحه : فى الجسد الذى شبه بجسد دحية ؟ أم فى الجسد الذى خلق عليه ستمائة جناح ؟ فإن كانت فى الجسد الأعظم فما الذى أتى إلى الرسول جبريل لا من جهة **روحه** ولا من جهة جسده ؟ وإن كانت فى الجسد المشبه بجسد دحية فهل يموت الجسد الذى له ستمائة جناح كما تموت الأجساد إذا فارقتها الأرواح ؟ أم يبقى حياً خالياً من الروح المنتقلة إلى الجسد المشبه بجسد دحية ؟

قلت : لا يبعد أن يكون انتقالها من الجسد الأول غير **وارد** عليهم فإنه عليه السلام ، أمر بالتعوذ من عذاب القبور ، وأن يسلم على القبور ، ولا ينظر خلو الأجساد من الأرواح ، وبعدها عن قبورها ، ولو كان كالعقل مع الروح ، وليسوا كالنائم والمغمى عليه ، والمجنون ، فإنه لا يسلم عليهم .

وقد قال ﷺ : « من صلى علىَّ عند قبرى سمعته ، ومن صلى علىَّ نائياً بلّغتُه »[1] .

ولا شك أن روحه ﷺ فى أعلى عليين مع أرواح الأنبياء حيث الرفيق الأعلى ،

=برهوت ، منهم القاضى أبو يعلى من أصحابنا فى كتابه المعتمد ، وهو مخالف لنص أحمد أن أرواح الكفار فى النار ، ولعل لبئر برهوت اتصالاً فى جهنم فى قعرها ، كما روى فى البحر أن تحته جهنم ، والله أعلم .

انظر : أهوال القبور (ص/١١٦) .

(١) موضوع . أخرجه الخطيب فى تاريخه (٣/٢٩١ – ٢٩٢) من طريق محمد بن مروان عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة به مرفوعاً .

قال ابن كثير : فى إسناده نظر ، تفرد به محمد بن مروان ، السدى الصغير ، وهو متروك .

انظر : التفسير لابن كثير (٣/٥١٥) .

● أورد الألبانى طرقه فى السلسلة الضعيفة (٢٠٣) وحكم عليه بالوضع .

وقال :

« لَوْلَا أَنْ تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِن عَذابِ الموتى فى قُبُورِهم »[1] .

(١) صحيح . أخرجه مسلم (٢٨٦٨) ، وأحمد (١١٤/٣ ، ١٥٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢٠١ ، ٢٧٣ ، ٢٨٤) ، والنسائى (١٠٢/٤) ، وابن حبان (٥٣/٥) .

قوله (لولا أن تدفنوا) أى لولا خشية أن يفضى سماعكم إلى ترك أن يدفن بعضكم بعضاً .

قوله (يسمعكم) من الاسماع .

● قال العلامة المناوى رحمه الله : ـــ قوله (لولا أن تدافنوا) : بحذف إحدى التائين ، أى لولا خوف ترك التدافن من خوف أن يصيبكم من العذاب ما أصاب الميت .

قوله (لدعوت الله أن يسمعكم) هو مفعول دعوت على تضمينه معنى سألت لأن دعوت لا يتعدى إلى مفعولين ، وفى رواية أحمد زيادة (أن يسمعكم عذاب القبر الذى أسمع) .

● قال الطيبى رحمه الله : أن يسمعكم مفعول ثان لدعوت على تضمين سألت والذى مفعول أن يسمعكم ، ومن عذاب القبر بيان له حال منه مقدم عليه ، ومعنى (لولا أن تدافنوا) أنهم لو سمعوه لتركوا التدافن حذراً من عذاب القبر ، أو لاشتغل كل بخويصته حتى يفضى بهم إلى ترك التدافن .

وقيل : لا زائدة ، ومعناه : لولا أن تموتوا من سماعه فإن القلوب لا تطيق سماعه فيصعق الإنسان لوقته ، فكنى عن الموت بالتدافن ، ويرشد إليه قوله فى الحديث الآخر « لو سمعه الإنسان لصعق » أى مات ، وفى رواية أحمد (لولا أن تدافنوا) بإسقاط لا ، وهو يدل على زيادتها فى تلك الرواية .

وقيل : أراد لأسمعتكم عذاب القبر أى صوته ليزول عنكم استعظامه واستبعاده ، وهم وإن لم يستبعدوا جميع ما جاء به كنزول الملك وغيره من الأمور المغيبة ، لكنه أراد أن يتمكن خبره من قلوبهم تمكن عيان ، وليس معناه أنهم لو سمعوا ذلك تركوا التدافن لئلا يصيب موتاهم العذاب ، كما قيل لأن المخاطبين ، وهم الصحب عالمون بأن العذاب أى عذاب الله لا يرد بحيلة ، فمن شاء تعذيبه عذبه ، ولو ببطن حوت ، بل معناه لو سمعوا عذابه تركوا دفن الميت استهانة به ، أو لعجزهم عنه لدهشهم وحيرتهم ، أو لفزعهم ، وعدم قدرتهم على إقباره ، أو لئلا يحكموا على كل من اطلعوا على تعذيبه فى قبره بأنه من أهل النار فيتركوا =

وأجساد المؤمنين على **هيئة** جسد آدم ستون ذراعاً فى السماء ، فما الديار الديار ، ولا الخيام الخيام .

وعلى الجملة : فياله من نبأ عظيم نحن عنه معرضون .

وأسعد الناس من آثر مصالح آخرته على مصالح دنياه فإنها خير وأبقى وآثر دفع مفاسد آخرته على دفع مفاسد دنياه لأنها شرٌّ ، وأبقى ، ولا نسبة لمفاسد الآخرة ومصالحها موجب لموته ، لأن موت الأجساد بمفارقة الأرواح ليس بواجب عقلاً ، وإنما هو بعادة مطردة أجراها الله فى أرواح بنى آدم فيبقى لك الجسد حياً لا ينقص من معارفه ، وطاعاته شىء ، ويكون انتقال روحه إلى الجسد الثانى كانتقال أرواح الشهداء إلى أجواف الطيرالخضر ، وانتقالها إليها مشبه بما يقوله أهل التناسخ .

١٥ – **فإن قيل** : الإنسان لا يثاب على حسن صورته لأنها ليست من كسبه ، ولا من حواسه لأنها ليست من فعله ، ولا على عقله ، ولا على جبلَّاته الكريمة الداعية إلى الخيور ، وإلى اجتناب الشرور ، إذ لا ثواب إلا على فعل مكتسب ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَاكُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1] وليست هذه الأوصاف من عمله ، ولا يتعلق بها تكليف إذ لا قدرة له عليها ولا سبيل له عليها ، فهل يثاب الرسول على النبوة ، والإرسال ، أم لا ؟

قلنا : أما الإرسال فهو من الصفات الشريفة التى لا ثواب عليها وإنما الثواب على أداء الرسالة التى حملها .

وأما النبوة فقد اختلف العلماء فيها فمن جعل النبى هو المنبىء عن الله أثيب على إنبائه عنه لأنه من كسبه ، ومن قال مذهب الأشعرى وجعل النبى هو الذى

=الترحم عليه ، وترجى العفو له ، وإنما أحب إسماعهم عذاب القبر دون غيره من الأهوال لأنه أول المنازل . انظر : **فيض القدير** (٣٤٢/٥) .

(١) **سورة الطور** : ١٦ .

نبأه الله فلا ثواب له على إنباء الله إياه لتعذر اندراجه فى كسبه ، وكم من صفة شريفة لا يثاب الإنسان عليها ، كالمعارف الإلهية أى : لا كسب له فيها ، وكالنظر إلى وجه الله الكريم الذى هو أشرف الصفات ، ولا ثواب عليه .

١٦ - **فإن قيل** : أيها أفضل : النبوة أم الإرسال ؟

قلت : النبوة أفضل لأن النبوة إخبار عما يستحقه الله عز وجل من صفات الجلال ، ونعوت الكمال ، وهى متعلقة بالله من طرفيها ، والإرسال دونها أمر بالإبلاغ إلى العباد فهو متعلق بالله من أحد طرفيه ، وبالعباد من طرف آخر .

ولا شك أن ماتعلق بالله من طرفيه أفضل مما تعلق بالله من أحد طرفيه ، والنبوة سابقة على الإرسال ، فإن قوله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام : ﴿ إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَه إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى ﴾(١) مقدم على قوله : ﴿ اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾(٢) فجميع ماتحدث به معه قبل قوله : ﴿ اذْهَبْ إِلى فَرْعَوْنَ ﴾ نبوة وما أمره بعد ذلك من التبليغ فهو إرسال .

* * *

---

(١) سورة طه :١٤ .

(٢) سورة طه : ٢٤ .

١٧ – والحاصل أن النبوة راجعة إلى التعريف بالإله ، وبما يجب للإله ، والإرسال راجع إلى أمره الرسول بالتبليغ عنه إلى عباده أو إلى بعض عباده ما أوجب عليه من معرفته وطاعته واجتناب معصيته ولذلك فإن رسول الله ﷺ قال له جبريل عليه السلام : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾[١] إلى قوله : ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾[٢] كان هذا نبوة أمره بالقراءة ، وعرفه بالربوبية ، وبأنه خلق كل شيء ، وبأنه خلق الإنسان من علق ، وبأنه الأكرم الذى علم الخط بالقلم ، وعلم الإنسان مالم يعلم ، وأن رجوع العباد كلهم إلى جزاءه ، فهذا كله نبوة .

وكان ابتداء الرسالة حين جاءه جبريل وقال له : ﴿ يَاأَيُّهَا المُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ ﴾[٣] وكذلك موسى عليه السلام عرفه الربوبية قوله : ﴿ إِنِّى أَنَا رَبُّكَ ﴾[٤] وأمره بخلع نعليه ليقوم بالأدب بين يديه ، وعرفه طهارة المكان الذى حل فيه ، وأنه اختاره لنبوته ورسالته ، وأمره أن يسمع لما يوحى إليه ، ثم أوحى إليه قوله : ﴿ لَا إِلَه إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى ﴾[٥] وعرفه أن الساعة آتية لتجزى كل نفس بما تسعى ، كما أخبر محمداً ﷺ بذلك ، بقوله : ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾[٦] وكذلك ماذكر بعده كله نبوة إلى أن قال له : ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾[٧] فهذا ابتداء رسالته .

---

(١) سورة العلق : ١ .
(٢) سورة العلق : ٨ .
(٣) سورة المدثر : ١ – ٢ .
(٤) سورة طه : ١٢ .
(٥) سورة طه : ١٤ .
(٦) سورة العلق : ٨ .
(٧) سورة طه : ٢٤ .

١٨ - [**فائدة**] ليس لأحد أن يفضل أحداً على أحدٍ ، ولا أن يسوى أحداً بأحدٍ حتى يقف على أوصاف التفضيل ، أو التساوى ، فمن لا يعرف مااشتملته عليه أرواح الأنبياء ، وأرواح الملائكة من المعارف ، والأحوال ، لا يجوز له أن يتعرض لشىء من التفضيل والمساواة ، إلا بمدرك شرعى ، ولا يقدم على ذلك إلا هَجوم لا يتقى الله ، ولا يخشى التصمخ[1] بها والكذب . وقد جاء فى التنزيل مايدل على تفضيل البشر على الملائكة بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾[2] والبرية الخليقة الذين من جملتهم الملائكة .

وكذلك ذكر جماعة من الأنبياء فى سورة الأنعام فقال فيهم : ﴿ وَكُلّاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالمِينَ ﴾[3] والملائكة من جملة العالمين ، لأنك إن اشتقيت العَالِم من العلم ، فالملائكة من العلماء ، وإن أخذته من العلامة اندرج فيه الملائكة ، وكل موجود سوى الله ، لأن فى كل منهم علامة تدل على قدرة الصانع ، وإرادته ، وعلمه وحياته وحكمته .

١٩ - [**فائدة**] إذا استوى اثنان فى حالٍ من الأحوال فهما فى الفضل سيان ، فإن تفاوتا فى ذلك بطول الزمان ، وقصره ، كان من طال زمانه أفضل ممن قصر زمانه عند اتحاد الحال .

وإن تفاوتا فى الأحوال فإن كانت إحدى الحالين أشرف وأطول زماناً فلا

(١) صمخ : الصماخ من الأذن ، الخرق الباطن الذى يفضى إلى الرأس ، والصَّمْخُ : كل ضربة أثرت فى الوجه ، ويقال : صمخته الشمس أى أصابته ، واشتد وقعها عليه .
(٢) سورة البينة : ٧ .

● أخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : أتعجبون من منزلة الملائكة من الله ، والذى نفسى بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة ، أعظم من منزلة ملك ، واقرأوا إن شئتم ﴿ إن الذين آمنوا .... ﴾ . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٧٩) .
(٣) سورة الأنعام : ٨٦ .

شك أن صاحبها أشرف وأفضل .

٢٠ – مثاله : الخائف مع الهائب ، فإن الهيبة أفضل من الخوف ، فإذا طال زمان الهيبة وقصر زمان الخوف فقد فضلته من وجهين اثنين ، فإن استوى الزمان كان الهائب أفضل ، وكذلك إن قصر زمان الهيبة ، وطال زمن الخوف ، كانت الهيبة أفضل لعلو رتبتها وشرفها ، ألا ترى أن وزن دينار من الجوهر أفضل من الدينار من الفضة ، والدينار أفضل من الدرهمين ، والعشرة ، لشرف وصفه على وصف الفضة ، والدرهم أفضل من مائة درهم من النحاس لشرف وصفه ، وبهذا الميزان يعرف تفاوت الرجال فيعرف الخائف بظهور آثار الخوف عليه ، كما يعرف الهائب بظهور آثار المهابة عليه .

وكذلك القول فى المحبة والرضا ، والتوكل ، والرجاء ، وسائر الأحوال ، فإذا ظهرت آثار الهيبة على إنسان ، وآثار الخوف أو الرجاء على آخر ، علمنا أن من ظهرت عليه آثار الهيبة أفضل من صاحبه .

وكذلك إذا ظهرت على أحد الرجلين آثار محبة الإنعام والإفضال ، وظهرت على آخر آثار محبة الجلال والجمال فصاحب المحبة المبنية على معرفة الجلال ، والكمال ، أفضل من صاحب محبة الإنعام والإفضال ، لتعلق محبة الجلال والجمال ، بذات الله وصفاته ، ولتعلق محبة الإنعام والإفضال بغير الله ، وبمثل هذا الأسلوب نعرف مراتب الرجال .

وكذلك تعرف مراتب الطائعين بملابسة بعضهم لأفضل الطاعات ، وبملابسة الآخرين لأدنى الطاعات ، وإن استووا فى الطاعات لم يجز التفضيل فى باب الطاعات ، وإن كثرت طاعات أحدهم ، وقلت معارف الآخر وأحواله ، قُدّم شرف المعالم ، والحوال على شرف الأعمال والأقوال ولهذا جاء فى الحديث :

« ماسبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بأمر وقر فى صدره »[1] .

وقال عليه السلام لما استنقص بعضهم طاعاته :

« إِنى لأرجُو أَنْ أَكونَ أَعْلَمُكُمْ باللَّهِ ، وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً »[2] . ففضل المعرفة وشدة الخشية على كثرة الأعمال .

[صفة أحوال الناس فى البرزخ على الإجمال]

٢١ – ما من بَرٍّ ولا فاجر ، ومؤمن وكافر إلا ينظر فى البرزخ إلى منزله بكرة وعشية ، إن كان من أهل النار فمن أهل النار ، وإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، ثم نعيم الرزخ المخصوص به مبنى على شرف الأعمال وكثرتها ، وعذاب البرزخ المخصوص به مبنى على الإساآت وكثرتها .

والمنازل أربع :

---

(١) لا أصل له مرفوعاً . أورده الغزالى (٢٣/١) فى الإحياء ، وقال العراق : أخرجه الحكيم الترمذى فى « النوادر » من قول بكر بن عبد الله المزنى ، ولم أجده مرفوعاً ، ونقله عنه صاحب كشف الخفاء (١٩٠/٢) ، وتمييز الطيب (١٢٠٠) .

● أخرجه الترمذى فى الصلاة ومقاصدها (ص/٨٠ – ٨١) من كلام غالب القطان ، وسنده صحيح .

(٢) صحيح . أخرجه البخارى (٥٠٦٣) ، (٦١٠١) ، (٧٣٠١) ، ومسلم (٢٣٥٦) ، وأحمد (٤٥/٦ ، ١١٨) .

[فائدة عظيمة] قال العلامة ابن حجر العسقلانى فى الفتح (١٠٥/٩) : قوله (إنى لاخشاكم لله) فيه إشارة إلى رد ما بنوا عليه **أمرهم** من أن المغفور له لا يحتاج إلى مزيدٍ فى العبادة بخلاف غيره ، **فأعلمهم** أنه مع كونه يبالغ فى التشديد فى العبادة أخشى لله ، وأتقى من الذين يشددون ، وإنما كان كذلك لأن المشدد لا يأمن من الملل بخلاف المقتصد ، فإنه أمكن لاستمراره ، وخير العمل ما داوم عليه صاحبه .

احداها : فى بطون الأمهات .

والثانية : فى الدنيا .

والثالثة : فى البرزخ إلى جمع الرفات وبعث الأموات .

والرابعة : فى دار القرار ولا غاية لآخرها . بل أهل الجنة فى خلود فى النعيم بلا موت ، وأهل النار فى خلود فى الجحيم بلا موت[1] .

[صفة لذات الجنة وأفراحها على الإجمال]

٢٢ - الجنة مملوءة بالأفراح وأسبابها ، واللذات وأسبابها ، خلية من الغموم والآلام وأسبابها ، وأفراحها أفضل الأفراح ، ولذاتها أفضل اللذات ، وأفضل لذة رضا الرب ، والنظر إليه ، وسماع كلامه وسلامه ، والأنس بقربه وجواره ، فإنه ينشأ عنها من الأفراح مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ولذات المعارف فى الآخرة أفضل من لذاتها فى الدنيا . وكذلك الأحوال الناشئة عن المعارف فى الآخرة أفضل من نظيرها فى الدنيا ، لأنها أكمل وأفضل وخير وأبقى .

---

(١) وقال ابن القيم رحمه الله : للنفس أربعة دور ، كل دار أعظم من التى قبلها .

الأولى : بطن الأم ، وذلك محل الحصر ، والضيق والغم ، والظلمات الثلاث .

الثانية : هذه الدار التى نشأت فيها ، وألفتها ، واكتسبت فيها الخير والشر .

الثالثة : دار البرزخ ، وهى أوسع من هذه الدار وأعظم ، ونسبة هذه الدار إليها كنسبة الدار الأولى إلى هذه .

الرابعة : الدار التى لا دار بعدها دار القرار ، الجنة أو النار ، ولها فى كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الأخرى .

انظر : شرح الصدور (ص/٢٥٦) .

ولا ينقطع من الأحوال فى الآخرة إلا الخوف لأنه مؤلم ، وما مَنّ الله بالخوف فى الدنيا على عباده إلا لكونه زاجراً لهم عن معصيته ومخالفته ، وكذلك ليسقط الأمر به عند حضور الموت ، وكذلك لذات مأكلها ومشاربها وملابسها ومناكحها ومساكنها ومراكبها أفضل من لذات نظائرها فى الدنيا وهى دون لذات المعارف .

[صفة غموم النار وآلامها على الإجمال]

٢٣ – النار مشحونة بالغموم وأسبابها ، والآلام وأسبابها ، وأشدها ألم السخط والغضب والطرد والإبعاد ، وسماع قوله : ﴿ اخْسَئُواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[1] فمن آلامها ألم أكل الضريع والزقوم وشرب الصديد والحميم والغساق ، والسلاسل والأغلال ، والذل والهوان والخزى والافتضاح ، وهى خالية من جميع اللذات والأفراح .

* * *

(١) سورة المؤمنون : ١٠٨ .

● أخرج ابن أبى شيبة ، وهناد بن السرى ، وعبد بن حميد ، وعبد الله ابن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى البعث عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال :

إن أهل جهنم ينادون مالكاً : يا مالك ليقض علينا ربك ، فيذرهم أربعين عاماً لا يجيبهم ، ثم يجيبهم اخسئوا فيها ولا تكلمون ، فييئس القوم بعدها ، وما هو إلا الزفير والشهيق . أورده السيوطى فى الدر المنثور (١٦/٥) .

[صفة مافى الدنيا من اللذات والأفراح والغموم والآلام على الإجمال]

٢٤ – والدنيا مشحونة بالمصالح وأسبابها ، والمفاسد وأسبابها ، وشرها أكثر من خيرها ، ومضارها أكثر من منافعها ، وقبائحها أكثر من محاسنها ، ومعظم مقاصد الخلق فى جلب اللذات والأفراح ، وانتفاء الغموم والآلام ، فأفضلهم من كانت مقاصده فى أفراح المعارف والأحوال ولذاتها ، ويليه من كانت أقل مقاصده فى لذات الدنيا وأفراحها ، ومعظم مقاصد لذات الآخرة وأفراحها ، ويليه من توسط فى مقصودى الدنيا والآخرة ، ويليه من غلب عليه قصد لذات الدنيا وأفراحها ، وأشقى منه من لا يخطر له لذات الآخرة وأفراحها ببالٍ حتى يسعى لها .

والجنة والنار دارَا بقاء وقرار ، والدنيا دار زوال وانتقال ، فويل لمن باع النفيس الباقى بالخسيس الفانى ، فيالها من صفقة خاسرة ، وتجارة بائرة ، ومن يهن الله فماله من مكرم إذ لا مُشقى لمن أسعده ، ولا مسعد لمن أشقاه ، ولا مقصى لمن قربه ولا مقرب لمن أقصاه .

[فصل فى السعادات]

٢٥ – سعادة الدنيا والآخرة بالطاعات ، وشقاوتهما بالمعاصى والمخالفات ، فمن الناس السعيد والأسعد ، والشقى والأشقى، وهم أربعة :

سعيد فى الدنيا والآخرة .

وشقى فى الدنيا والآخرة .

وشقى فى الدنيا سعيد فى الآخرة .

وشقى فى الآخرة سعيد فى الدنيا .

والسعادة كلها بالمعارف والأحوال ، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله فى كل حال .

[فصل فى أسباب الفضائل]

٢٦ - الفضائل بالإسلام ، والإيمان ، والتقوى ، والمعارف ، والأحوال ، والأبوة والحرية ، والأمانة والروحية ، والأخلاق السنية ، والرسالة والنبوة ، وحسن الآداب ، والتلبس بأخلاق القرآن كالعفو والغَفْر ، والصفح والصبر ، والحلم والكظم . ولا فضل فى الدنيا ومتاعها ، وزهرتها وجاهها ، وكثرة أموالها وأحشادها لأنها فتن وأسباب فتن .

٢٧ - [**فصل**] تفضل الله بنعيم الجنان على غير عملٍ مكتسبٍ ، كما تفضل على الحور العين المخلوقات فى الجنان ، وكما يتفضل على الذين ينشئهم فى الجنة ، ويسكنهم فى قصورها من غير إثابة على عمل سابق ، وكما يتفضل بثواب الشهادة على المبطون ، والغريق ، والحريق ، والمرأة تموت بجُمْع[1] ، ولا كسب لهم فى ذلك ، وكما يتفضل فى الدنيا على بعض عباده بكمال العقول ، وبحسن الصور والأخلاق ، والسجايا والقوى والحواس .

وقد يعذب أقواماً فى الدنيا والآخرة من غير جرمٍ سابقٍ كقبح الصورة وسخافة العقول ، وضعف القوى والحواس ، وملازمة الأوصاب والأسقام ، والغموم والآلام . كما ينشىء فى النار قوماً يعذبها بها من غير كفر متقدم ، ولا

---

(١) هى التى تموت ، وفى بطنها ولد . وأخرج حديثها أحمد (٢٠١/٤) ، (٣٢٣/٥) ، ومالك (٢٣٢/١) ، وأبو داود (٣١١١) ، والنسائى (١٣/٤ - ١٤) ، (٥١/٦ - ٥٢) ، وابن ماجه (٢٨٠٣) ، والحاكم (٣٥٢/١) وصححه .

عصيان سابق ، ألا له الخلق والأمر لا يسئل عما يفعل فى خلقه من إشقاء وإسعاد ، وتقريب وإبعاد ، وهم يسئلون عما كانوا يفعلون ، فسبحان من لا متصل إلا عليه ، ولا منجا منه إلا إليه .

[فصل فى الإحسان القاصر على فاعليه]

٢٨ – كل من أطاع الله بفعل واجبٍ أو مندوبٍ ، أو ترك محرم أو مكروه ، فهو محسن غلى نفسه بتعريضها للثواب ، قائم بحقها وبحق ربه فى طاعته ، ويختلف أجره باختلاف مصالح ماقام به من ذلك المأمور بدليل قوله : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُم أَحْسَنتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ﴾[١] وقوله : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ﴾[٢] وقوله : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾[٣] .

وكذلك يختلف أجره باختلاف مفاسد مااجتنبه من ذلك المنهى ، ومن أتى مباحاً فهو محسن إلى نفسه غير مطيع ولا مثاب لأن المباح غير مأمور .

[فصل فى الإحسان المتعدى]

من فعل واجباً متعدياً أو مندوباً متعدياً ، واجتنب محرَّما أو مكروهاً متعديين ، فقد قام بحق نفسه ، وحق ربه ، وحق من تعدى إليه ذلك ، والكتاب مشحون فى الترغيب فى هذا النوع .

٢٩ – [**فائدة**] كل مطيع لله ، محسن إلى نفسه ، فإن كان إحسانه متعدياً

---

(١) سورة الإسراء : ٧ .

(٢) سورة فصلت : ٤٦ ، والجاثية : ١٥ .

(٣) سورة الروم : ٤٤ .

إلى غيره تعدد أجره بتعدد من تعلق به إحسانه ، وكان أجره على ذلك مختلفاً باختلاف مانسب إليه من جلب المصالح ، ودرء المفاسد ، فإن كان إماماً فهو محسن إلى نفسه وإلى كل من تعلق به إحسانه من رعيته ، وأعوانه ، وأنصاره ، وولاته وقضاته .

وإن كان حاكماً فهو محسن إلى نفسه بطاعة ربه ، وإلى المدعى إن كانت له حجةَ فقد نصره بإيصال حقه إليه ، وإلى المدعى عليه ظالماً بتخليص خصمه من ظلمه ، والمدعى مظلوماً . وإن كان الأمر بالعكس فقد نصر المدعى عليه مظلوماً والمدعى ظالماً . وإن كان شاهداً فهو محسن إلى نفسه ، وإلى الخصمين بالتحمل والأداء لأنه متسبب إلى نصر الظالم ، والمظلوم .

وإن كان مفتياً فهو محسن إلى نفسه ، وإلى المستفتى والمستفتى عليه .

٣٠ - [**فائدة**] : لقد فتح الله سبحانه وتعالى على عباده أبواباً كثيرة إلى الجنان حتى أنه ليثيبهم بفرسن[1] شاة ، وبشق تمرة ، وكلمة طيبة ، وبمجرد المقصود والنيات ، فمن أصبح عازماً على الإحسان على حسب الإمكان ، فإنه يؤجر على قصوده ، وإن لم يقع مقصوده ، وتختلف أجور قصوده باختلاف رتب مقصوده ، فمن تصدى للحكم بالعدل ، والقضايا بالقسط أثيب ثوابين : أحدهما على قصده ، والثانى : على تصديه ، وإن لم يتحاكم إليه أحد . وإن تحاكم إليه خصوم أثيب على كل حكومة بعشر حسنات ، تختلف رتبتها باختلاف رتب المحكوم به ، من جلب المصالح ودرء المفاسد .

(١) الفرسن : فرسن البعير هى عظام فى الفرس ، ويقال لموضع الفرسن من الخيل الحافر ، ثم الرسغ ، والفرسن من البعير بمنزلة الحافر من الدابة ، والفرسن عظم قليل اللحم ، وهو خف البعير ، وفى الحديث ينصح النبى ﷺ المسلمات بالصدقة فيقول لهن « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو فرسن شاة » .

٣١ – ومن تصدى للفتيا أثيب ثوابين : أحدهما على قصده ، والثانى : على تصدّيه ، وإن لم يستفت فى شيء ، وإن استفتى فأجيب أثيب على كل جواب بعشر حسنات ، تختلف رتبتها بإختلاف رتب مصالح تلك الأجوبة .

وكذلك تصدى الإمام الأعظم للقيام بمصالح المسلمين ، وكذلك التصدى لجلب كل مصلحة مأمور بها ، ودرء كل مفسدة منهى عنها .

وإن كان الأمر كذلك فلن يهلك عند الله إلا هالك .

٣٢ – **فإن قيل** : لو رجحت إحدى المصلحتين على الأخرى بمثقال ذرة ، وتعذر الجمع فى الجلب والدفع فهل يقدم الأصلح ويدرء الأفسد ؟

قلنا : نعم لأن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

[فصل فى الإساءة القاصرة على المسىء]

٣٣ – من ارتكب محرماً أو مكروهاً ، أو منع واجباً فهو مسىء إلى نفسه ، مضيع لحق ربه ، وحق نفسه ، بدليل قوله : ﴿ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾[١] وقوله : ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُم فَلَهَا ﴾[٢] وقوله : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾[٣] .

* * *

(١) سورة فصلت : ٤٦ ، وسورة الجاثية : ١٥ .

(٢) سورة الإسراء : ٧ .

(٣) سورة النساء : ١١١ .

[فصل فى الإساءة المتعدية]

٣٤ – من عصى الله معصية تتعلق بغيره فهو مسىء إلى نفسه ، ظالم لها ، مضيع لحقها ، وحق ربه من طاعته ، وحق من تعلقت به معصيته من الناس والبهائم والحيوان المحْتَرم .

[فوائد متفرقة]

٣٥ – **فائدة** : **إن قيل** : لو قتل عدو الإنسان ظلماً وتعدياً فسره قتله ، وفرح به هل يكون ذلك سروراً بمعصية الله أم لا ؟

قلت : إن فرح بكونه عصى الله فيه فبئس الفرح فرحه ، وإن فرح بكونه خَلَص من شره ، وخَلَص الناس من ظلمه ، وغشمه ولم يفرح بمعصية الله بقتله فلا بأس بذلك ، لاختلاف سببى الفرح .

٣٦ – **فإن قال** : لا أدرى بأى الأمرين كان فرحى ؟

قلنا : لا إثم عليك لأن الظاهر من حال الإنسان أنه يفرح بمصَاب عدوه لأجل الإستراحة منه ، والشماتة به ، لا لأجل المعصية ، ولذلك يتحقق فرحه ، وإن كانت المصيبة سماوية .

٣٧ – **فإن قيل** : إذا سر العاصى فى حال ملابسة المعصية فهل يأثم لسروره أم لا ؟

قلت : إذا سر العاصى بها من جهة أنها معصية أثم بذلك ، وإن سر بها من جهة كونها لذة مع قطع النظر عن كونها معصية فلا إثم عليه فى سروره ، والإثم مختص بملابسة المعصية والله عز وجل أعلم .

٣٨ – [**فائدة**] احترام المصاحف أنواعٌ : أفضلها العمل بما فيها .

الثانى : إبعادها من النجاسات .

الثالث : إبعادها من المستقذرات كالمخاط والبصاق .

الرابع : إبعادها من مس المحدثين ، ثم المجنبين ، ثم الحُيض ثم حملها منفردة ، ثم حملها مع الأمتعة .

٣٩ – وأما القيام للمصاحف فبدعة لم تعهد فى الصدر الأول وإنما بيّنت هذه الحرم إجلالاً لرب العالمين وتعظيما لكتابه أن يسوى بينه وبين كتب غيره .

٤٠ – وأما حرمة المساجد فبأن تصان من النجاسات ، والمخاط ، والبصاق ، وإقامة الحُيض والمجنبين ، والبيع والشراء ، أو رفع الأصوات وإنشاد الضوال[1] ، والتصون من دخول الصبيان والمجانين ، ومن اتخاذها مجالس للولاة والحكام على الاستمرار والدوام ، لأن أحد الخصمين كاذب فى الغالب ، مبطل فتصان عن إيقاع الباطل فيها ، وأن لا يفعل فيها إلا ما بُنِيَتْ له ، وهى الصلاة فقط ، والقراءة تبعاً لها .

وحرمة المسجد الأقصى آكد من غيره لقدمه ، ولشد الرحال إليه ، وكثرة من طرقه من الأنبياء ، والأولياء ، والصالحين ومسجد المدينة أفضل منه ، والمسجد الحرام أفضل من مسجد المدينة لما اختص به من الفضائل ، والأحكام وإنما بَيَّنْتُ حرمة المساجد تمييزاً لبيوت الله عن بيوت الناس إجلالاً وتعظيماً له .

[**فائدة**] : أوقات الصلوات مرتبة بحركات الشمس وانتهائها فى أماكن مخصوصة ، ويعرف انتهاؤها إلى تلك الأماكن بالأمارات الدالة على انتهائها إليه ، فاستواؤها سبب لكراهة النوافل ، وزوالها سبب لوجوب الظهر ، وانتهاؤها إلى حد يصير ظل الشخص فيه مثله سبب لصلاة العصر وتوابعها ، وانتهاؤها إلى

---

(١) من ضاع منهم بعض ما يخصهم .

الإصفرار سبب لكراهة الصلاة ، وانتهاؤها إلى الغروب سبب لصلاة المغرب وتوابعها ، وانتهاؤها إلى حد يغيب فيه الشفق سبب لصلاة العشاء وتوابعها ، وانتهاؤها إلى الثلث الأخير سبب لإعطاء السائلين وإجابة الداعين ، وحط ذنوب المستغفرين ، وانتهاؤها إلى حد يظهر فيه الفجر سبب لصلاة الفجر وتوابعها ، وانتهاؤها إلى حد تطلع فيه سبب لكراهة التنفل ، وانتهاؤها فى الارتفاع إلى قيد رمح سبب لصلاة الضحى وجواز التنفل ، ولم تشرع الفرائض فى جوف الليل لما فيه من المشاق ، وشرع التنفل لئلا تفوت القربات على من أرادها ، وأطول الأوقات وقت العشاء ، وأقصرها وقت المغرب ، والأصح أنه موسع إلى مغيب الشفق ، ولم أقف فى طول الأوقات وقصرها على شىء اعتمده ، وانما فرقت الصلوات على الأوقات ، ولم تُجْمَع فى وقتٍ واحدٍ لما فى ذلك من المشقة والسأمة ، ولأن الخشوع والخضوع لا يطول زمنهما فى الغالب ويعرفان مع طول الزمان بحيث يعسر ردهما إلا باستحضار شافٍ ، فوزعت الصلوات على الأوقات لذلك ، وقرب بعضها من بعض لأنه لو طال أمدها لنسى الإنسان ربه ، وأطال عهده بذكره ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى ﴾[1] أى لتذكرنى ، والله ذاكر من ذكره ، وشاكر من شكره ، والصلاة مشتملة على ذكره ، وأفضل شكره ، فإن شكره بطاعته ، واجتناب معصيته ، وشكره إيانا بمثوبته وكرامته قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾[2] أى شاكر لتطوعه بالمثوبة ، عالم بتطوعه فى قلته ، وكثرته فهو يشكره على قدر فضل طاعته وقلتها وكثرتها . ولم أقف على معنى كراهة الصلاة فى الأوقات الخمس ، ولا على معنى التعليل بطلوعها بين قرنى الشيطان ، ومقارنته إياها عند الاستواء والتصنيف والغروب ، وقد عُلل ذلك بأن عبادها يصلون لها فى هذه الأوقات ، وهذا لا يصح فإن تعظيم الله فى الأوقات التى يُسجد فيها لغيره أولى لما فيه من إرغام أعدائه .

(١) سورة طه : ١٤ .

(٢) سورة البقرة : ١٥٨ .

ولست أتكلف الكلام فيما لا أعلمه ، ولا الجواب بما لا أفهمه ، وأرجو أن يطلعنى الله على مراد رسول الله ﷺ فى ذلك ، ثم لو صح هذا التعليل فأى فرق بين صلاة لها سبب أو لا سبب لها ، والموفق من رأى المشكل مشكلاً ، والواضح واضحا ومن تكلف خلاف ذلك لم يخل من جهل أو كذب .

فإن كانت الشمس حيوانًا مطيعًا لربه ، كما زعم بعض الناس فقد أمرنا بموافقته فى طاعته عند هذه الحركات ، فإن الاقتداء فى الخيرات مشروع .

[**فائدة**] : أموال أهل الحرب أقسام :

إحداها : ما يؤخذ بالسرقة فيختص به آخذه كما يختص بتملك المباح ولا خمس فيه .

القسم الثانى : ما يؤخذ بالمعاملات فيجب أداء أعواضه إليهم إذ لا يجوز خيانتهم فى ودائعهم ، وأماناتهم ، ولا فى شىء من معاملاتهم ، فإن الله لا يحب الخائنين .

القسم الثالث : الأسلاب التى يستحقها المقاتلون ولا خمس فيها ، وإنما جعلت للمقاتلين لأنهم كفوا مؤنة من قتلوه من الكافرين ، وكذلك لو قطع أحدهم يدى الكافر ورجليه لاستحق سلبه لأنه دفع شره ، بقطع أطرافه فأشبه دفعه بقتله .

القسم الرابع : الفىء المأخوذ من غير إيجاف خيل ولا ركاب وقد كان لرسول الله ﷺ فى حياته لقوة إرعابه المشركين الرعب كان يسير بين يديه مسيرة شهر ، وأما بعد موته فالأصح أنه يخمس ، وفى أربعة أخماسه قولان : أحدهما : أنه لأجناد المسلمين لأنهم قاموا مقامه فى إرعاب الكافرين .

والثانى : لمصالح المسلمين لأنها أعم وأنفع ، ولم يقم إرعابه الأجناد مقام إرعاب الرسول فى قوته ، ومسيره بين يديه مسيرة شهر ، وعلى قول : تصرف جملة الفىء إلى مصارف خمس الغنائم وهو ظاهر القرآن .

---

(١) وجف : الوجف : سرعة السير ، يقال : أوجف البعير إذا حثه ، وأسرع به .

القسم الخامس : الغنائم المأخوذة بإيجاف الخيل ، والركاب وتكثير السواد وهى مخمسة بنص الكتاب ، ولا يخفى مافى تخميسها من المصالح ، وأما أربعة أخماسها فللغانمين لأنهم نسبوا إليها بإيجاف الخيل ، والركاب ، وبتكثير السواد ، وكان سهم رسول الله ﷺ من أربعة الأخماس مثل سهم الفارس وهو ثلاثة أسهم مضموماً إلى سهمه من خمس الخمس .

٤٢ - **فإن قيل** : لم سوى بين الفرسان فى السهمين مع تفاوتهم فى النكاية ؟

قلنا : لما تعذر ضبط مايفعله كل واحد منهم تعذر ألا يمكن **دفعه** سويا بين من عظمت نكايتهُ ، وبين من خفت نكايته كما سوينا بين مكثرى السواد ، وبين المقاتلين ، وكذلك التسوية بين الرجالة مع التفاوت فى القتال والنكاية .

[**فائدة**] : الغلبة مفسدة شاقة على المغلوب عامة مؤلمة له ، سارة للغالب مشمتة له بالمغلوب مخجلة له ، ويجوز ذلك بل يجب فى غلبة الكفرة ، وعليه كل من يجب قتاله جائزة ، وفى حق من يجوز قتاله لرجحان مصلحة الغلبة ، والغلبة فى القمار محرمة لما ذكرنا ، فإن أخذ فيها المال تضاعفت العداوة والحقد من المغلوب ، والشماتة من الغالب ، وحَرُمَ ويبقى المال المقصور به فى ذمة القاصر ، والغلبة فى السباق والنضال جائزة لأن ذلك من أسباب القتال فيحمل لرجحان مصالح القتال مفاسده ، مع أن الغالب فيه يفوز ببشاشة القلب وبالسبق ، ويختص المغلوب بمعرف الغُلب وغبن أحد السبق .

والشطرنج موجب لمضار الغالب على المغلوب ، مشمت بخصمه ، فإن انضم إليه أخذ العوض حرم لتضاعف المفاسد ، وإن لم ينضم إليه أخذ مال فقد اختلف العلماء فيه .

والنرد محرم بالعوض لما ذكرناه وكذلك بغير عوض على الأصح ، ولم أقف على صفته حتى أعرف علته فأفرق بين مفاسده ومفاسد الشطرنج .

٤٤ – ومن غلب فى الجدل بالباطل مع علمه بالحق أثم لجدله ، وإفحام خصمه ، ولا يجوز إيراد الاشكالات القوية بمحضر من العامة ، لأنه سبب إلى إضلالهم وتشكيكهم ، وكذلك لا يتفوه بالعلوم الدقيقة عند من يقصر فهمه عنها فيؤدى ذلك إلى ضلالته ، وما كل سر يذاع ، ولا كل خير يشاع .

[**فائدة**] : إن قيل : كيف يجمعون بين قوله عليه الصلاة والسلام : « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق »[١] وبين قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾[٢] فالجواب من وجهين :

أحدهما : أن هذا من دفع المفاسد ومثقال الذرة من جلب المصالح .

والثانى : وهو أولى أن رتب شعب الإيمان المجازى ينتهى بإماطة الأذى عن الطريق ، لأن شعب الإيمان أفضل من غيرها من أنواع الإحسان ، فإنا نعلم أن مميط الإذى عن الطريق محسن إلى كل مجتاز بالطريق ، وهذا من الفعل الواحد الذى يتضاعف أجره بتضاعف أنفعه ، كالمؤذن والخطيب يتضاعف أجرهما بتضاعف أعداد سامعيهما ، وكذلك أمر الجماعة بمعروفٍ واحدٍ بلفظٍ واحدٍ ، ونهى الجماعة عن منكرٍ واحدٍ بلفظٍ واحدٍ ، وكذلك التبشير والإنذار .

---

(١) صحيح . أخرجه أحمد (٤١٤/٢) ، ومسلم (٣٥) ، وأبو داود (٤٦٧٦) والترمذى (٢٦١٤) ، والنسائى (١١٠/٨) ، وابن ماجه (٥٧) ، وغيرهم . قوله (بضع) : البضع ، والبضعة ، بكسر الباء فيهما وفتحها ، هذا فى العدد ، وأما بضعة اللحم فبالفتح لا غير ، والبضع فى العدد ما بين الثلاث والعشر ، وقيل : من ثلاثٍ إلى تسعٍ .

قوله (شعبة) هى القطعة من الشىء ، ومعنى الحديث بضع وسبعون خصلة . وقد شرح هذا الحديث الإمام الحليمى فى المنهاج فى شعب الإيمان وهو مطبوع فى ثلاث مجلدات ، والبيهقى فى كتابه شعب الإيمان ، ولم يطبع كاملاً .

(٢) سورة الزلزلة : ٧ .

تم بحمد الله وعونه على يد فقير عفو
أبي عبد الله بن علي بن عبد الرحمن

اللهم اغفر له ولوالديه ولمالكها ولمن نظر فيها
ودعا لهم بالمغفرة وللمسلمين أجمعين

وصلى الله على سيدنا محمد وصحبه أجمعين
وحسبنا الله ونعم الوكيل

الفهرس

صدر حديثاً :

سلسلة

من صفات عباد الرحمن

(٣٠)

المسابقة إلى الخيرات

تأليف

مجدي فتحي السيد



للنشر والتحقيق والتوزيع

ت : ٣٣١٥٨٧ - ص . ب : ٤٧٧

رقم الإيداع
١٩٨٩ / ٩٢١٤

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
مدينة العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ ت : ٣٦٢٢٣١٣
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانىء الأندلسى ت : ٦١٨١٣٧